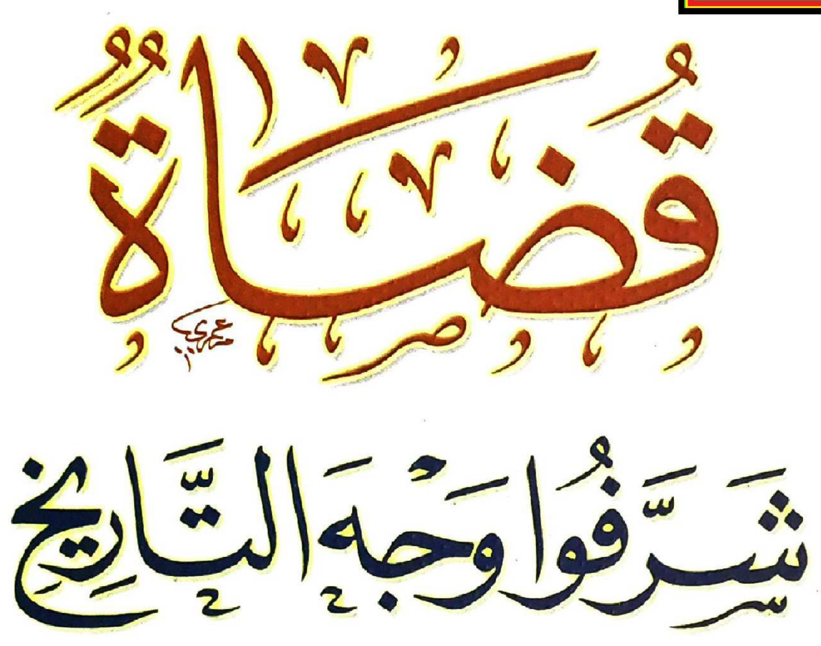




قضاة عمري

شرفوا وجه التاريخ

كتبه أبو مريم
محمود بن محمد حبابة



دار الإيمان
إسكندرية

قضاة

شرفوا وجه التاريخ







دار الإيمان
للطبع والنشر والتوزيع
١٧ شارع خليل الخياط - مصطفى كامل - إسكندرية
تليفون وفاكس: ٥٤٥٧٧٦٩ ت: ٥٤٤٦٤٩٦





كتبه أبو مريم

محمود بن محمد حبابة









المقدمة

الحمد لله الكريم الوهاب، الرحيم التواب، يحب التوابين والمتطهرين، ويقيل عثرات العاثرين وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﷺ.

أما بعد:

فإن بعض الناس إذا نظر إلى التاريخ والحضارة الإسلامية لا يرى إلا السلبيات، وبعض الناس إذا نظر في التاريخ والحضارة الغربية لا يرى إلا الإيجابيات.

إلى هؤلاء وهؤلاء نقول: إن البشرية لم تعرف السعادة والحرية والعدل والأمن إلا في الإسلام، فإذا طبق الإسلام كمنهاج لحياة البشر، عاش الناس مؤمنهم وكافرهم في سعادة وأمن وعدل، وهذه السعادة المنشودة لا تتم إلا بحاكم صالح، وقاضٍ عادل، وعالم عامل.

وتاريخنا الإسلامي مليء بكثير من النماذج المشرقة من هؤلاء، ولقد استعنت بالله عز وجل حتى أقدم لإخواننا المسلمين ولطالبي الحقيقة المجردة بعض النماذج من عدل القضاة في الإسلام وتوخيت الإيجاز دون خلل مع ترجمة بسيطة لكل قاض إن تيسر ذلك، فإن كان خيراً فمن الله، وإن كان غير ذلك فمن نفسي.

أو كما قال المقريزي شيخ المؤرخين المصريين في العصور الوسطى:

فإن كنت أحسنت فيما جمعت، وأصبت في الذي صنعت فذلك من عميم

منن الله تعالىٰ وجزيل فضله وإن أنا أسأت فيما فعلت وأخطأت فيما كتبت، فما أجدر الإنسان بالإساءة والعيوب، إذ لم يعصمه علام الغيوب

وما أبرئ نفسي إنني بشر ... أسهو وأخطئ إن لم يحمني قدر

ولا ترى عذراً أولى بذي زلل ... من أن يقول مقراً إنني بشر

وكان الفراغ منه يوم الجمعة ١٩ صفر ١٤٢٥هـ - ٩ إبريل ٢٠٠٤م

وكتبه

أبو مريم

محمود بن محمد حبابة

نصر بن ظريف اليحصبي

القاضي الصالح والعالم الورع نصر بن ظريف اليحصبي قاضي قرطبة في عهد أمير الأندلس عبد الرحمن بن معاوية، كان ورعًا، إذا شُغِلَ يومًا عن القضاء لم يأخذ عن ذلك اليوم أجرًا[1] وكان لا يخشىٰ في الحق لومة لائم.

وذات يوم جلس للحكم في نزاع بين حبيب القرشي - أحد المقربين من أمير الأندلس - وبين بعض العوام من المسلمين في بستان، كل منهم يدعي ملكيته، ونظر ابن ظريف في القضية وتحرىٰ دقائقها وهنا أحس حبيب بأن القاضي سيرد البستان إلىٰ أصحابه، فأسرع إلىٰ الأمير يشكو إليه القاضي، واستجاب له الأمير، وأرسل إلىٰ القاضي وطلب منه التريث وعدم العجلة في إصدار الحكم؛ لعل حبيبًا يستطيع أن يبرهن علىٰ ملكيته للبستان، وخرج ابن ظريف من عند الأمير لينفذ شيئًا اقتنع هو بعدالته وصحته، فأصدر الحكم فورًا لصالح الشاكين مخالفًا أمر أمير البلاد بعدم العجلة.

وعند ذلك غضب حبيب وأسرع إلىٰ الأمير وذكر له ما فعله القاضي وكيف استخف بأمره ولم ينفذ تعليماته بعدم العجلة والتريث في إصدار الحكم.

وغضب الأمير وأرسل يستدعي القاضي، وكانت مواجهة بين الحق والباطل، فقد نظر أمير البلاد إلىٰ قاضيه، وقال: من أمرك أيها القاضي بتنفيذ حكم أمرتك بتأخيره؟

---

(١) كتاب: التكملة لكتاب الصلة (٢/ ٢١١).

فقال القاضي بهدوء القاضي وثقة العالم : أمرني بهذا رسول الله ﷺ ؛ لأن الله بعثه بالحق ليقضي به على القريب والبعيد، والشريف والدنيء، أما أنت أيها الأمير فما الذي جعلك تتحامل لبعض رعيتك على بعض، وأنت تستطيع أن ترضي رجالك بما أعطاك الله من مال وتعطي الحق إلى أصحابه؟!

فأطرق الأمير لحظة، ثم عاد إلى رشده وقال : جزاك الله يابن ظريف خيراً، ثم أمر ابن حبيب أن يشتري الضيعة من أصحابها وأن يجزل لهم الثمن.

فوافق القاضي، وتم البيع، وكان ابن حبيب يقول : جزى الله ابن ظريف خيراً، كان البستان بيدي وهو حرام، فجعله حلالاً [1]

* * *

(١) مجلة الأمة القطرية جمادى الآخرة ١٤٠٢هـ .

الحق وليكن ما يكون
المنذر بن سعيد البلوطي

القاضي، الفقيه، الورع، الزاهد، النقي، التقي، المنذر بن سعيد البلوطي، تولى قضاء قرطبة وخطيب مسجدها الكبير أيام أعظم ملوك الأندلس في زمانه عبد الرحمن الناصر، وكان ذكيًا مخلصًا قوّالاً بالحق، لا يخشى في الله لومة لائم، كثير الفضائل، شاعرًا أديبًا فصيحًا، خذل الباطل ونصر الحق وأقام العدل، وكان الناصر لدين الله محبًا للعمارة، فبنى مدينة الزهراء وانشغل في بنائها حتى إنه تأخر عن حضور صلاة الجماعة يوم الجمعة ثلاث جمع متواليات، ثم عاد للصلاة في الجمعة الرابعة وعلم القاضي بذلك وكان هو خطيب الجمعة، فصعد المنبر ليقوم بواجبه من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ثم استفتح خطبته، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، وصلى على رسوله ﷺ ثم تلا قوله تعالى ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (١٢٨) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (١٢٩) وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ (١٣٠) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٣١) وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ (١٣٢) أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ (١٣٣) وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٣٤) إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾[الشعراء: ١٢٨-١٣٥]

ثم حذر من الدنيا ورغب في الآخرة وتلا قوله تعالى ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[التوبة: ١٠٩]

وكانت خطبة صادقة ذرفت منها العيون، ووجلت منها القلوب، وأدرك الخليفة

أنه المقصود بذلك، فبكىٰ وندم وجلس الأمير بعد الصلاة مع ولده وولي عهده وقال له: لقد تعمدني منذر بخطبته وأفرط في تقريعي ولم يحسن السياسة في وعظي ونصحي، ثم أقسم ألا يصلي الجمعة وراءه أبدًا، فقال له وليُّ عهده: فما الذي يمنعك من عزله؟ فرفض وقال: أمثل المنذر بن سعيد في فضله وورعه وصدقه وعلمه يعزل لإرضاء نفس ناكبة عن الرشد، سالكة غير القصد؟! هذا لا يكون أبدًا، بل يصلي بالناس حياته وحياتنا، فما أظن أن نجد مثله، ووالله لوددت أجد سبيلاً إلىٰ كفارة يميني ولو بملكي.

وعندما تم بناء الزهراء كان قصر الملك تحفة معمارية فريدة، أنفق عليه أموالاً كثيرة، وكان به قبة مزينة بالذهب والفضة يجلس تحتها الملك، وكان الملك يتباهىٰ به ويقول لزواره: هل رأيتم مثل هذا؟ فيقولون: لا، فيملأه هذا الرد غبطة وسروراً، وذات يوم جلس الملك يستقبل الأعيان والأمراء والعلماء، ومدحوا البناء وأثنوا عليه، والقاضي ساكت لا يتكلم، فالتفت إليه الملك وقال: ما تقول يا أبا الحكم؟ فبكىٰ القاضي، وانحدرت دموعه علىٰ لحيته وقال: ما كنت أظن أن الشيطان - أخزاه الله - يبلغ منك هذا المبلغ، ولا أن تمكنه من قيادك هذا التمكين مع ما آتاك الله من فضله ونعمته حتىٰ أنزلك منازل الكافرين، وغضب الملك وانفعل وقاطعه قائلاً: انظر ما تقول؟ كيف أنزلني الله منازل الكافرين؟ فرد القاضي قائلاً: نعم، أليس الله تبارك وتعالىٰ يقول: ﴿وَلَوْلا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٣٣-٣٥]

كانت كلمات القاضي صادقة، فنزلت برداً وسلامًا علىٰ الملك، فأفاق من غفوته واستيقظ من غفلته ونكس رأسه وبكىٰ، وقال: جزاك الله خيراً، وأكثر

في المسلمين من أمثالك، فالذي قلت هو الحق، ثم قام من مجلسه يستغفر الله نادمًا، وأمر بنزع الذهب والفضة من سقف القبة[١] .

أراد الناصر لدين الله أن يبني قصراً لإحدىٰ زوجاته، وكان بجوار المكان دار صغيرة وحمام لأيتام تحت ولاية القاضي، وأرسل الملك من يقوم بشراء الأرض من الوصي، وأجزل له الثمن، فرفض الوصي وقال : لابد من إذن القاضي.

فذهب الوسطاء إلىٰ القاضي فرد عليهم قائلاً : البيع علىٰ الأيتام لا يصح إلا بإحدىٰ ثلاث : حاجة الأيتام ، أو وهن البناء، أو ارتفاع الثمن، فأرسل الملك خبراء قدروا الأرض بثمن لم يعجب القاضي، فرفض البيع، فأظهر الملك الزهد في الأرض لعل القاضي يخفض ثمنها، وخاف القاضي أن يأخذ الملك الأرض قهراً، فأمر بهدم الدار والحمام وباع الأنقاض بأكثر مما قدَّره الخبراء.

ولما علم الملك بذلك استدعىٰ القاضي وقال له : أنت أمرت بهدم البيت؟

قال القاضي : نعم.

فقال الملك : ولماذا فعلت ذلك ؟

قال القاضي : أخذت بقوله تعالىٰ : ﴿**أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا**﴾ [الكهف: ٧٩] لقد بعت الأنقاض بأكثر مما قدرت للدار وبقيت الأرض للأيتام، فالآن يمكنك شراء الأرض.

فقال الملك : أنا أولىٰ أن أنقاد للحق، فجزاك الله عنا وعن المسلمين خيراً[٢] .

---

(١) سير أعلام النبلاء (١٦/ ١٧٣) .

(٢) رجال من التاريخ (١/ ٢٢٢) .

وقحط الناس في آخر حكم الناصر، فأمر الناصر القاضي أن يخرج بالناس للاستسقاء، فصام ثلاثة أيام قبل أن يخرج بالناس ثم خرج بالناس للصلاة، وقام يدعو وكان مما قاله: ﴿سَلامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[الأنعام: ٥٤]

ثم أعادها مراراً وهو يبكي وأخذت الناس الخشية وعلا صوتهم بالبكاء والنحيب وعزموا على التوبة والإنابة ولم يزالوا في دعاء ونحيب حتى أنزل الله المطر وعادوا إلى بيوتهم سالمين(١)

* * *

(١) رجال من التاريخ (١/ ٢٢٢).

قاضي الكوفة
شريك بن عبد الله النخعي

العالم الصادق والقاضي العادل شريك بن عبد الله بن أبي شريك العاصمي النخعي، ولد سنة ٩٥ هـ في بخارىٰ، وتعلق قلبه بالقرآن الكريم، فحفظه ثم رحل إلىٰ الكوفة لطلب علم الحديث والسُّنة، وكان يعمل ويشتري دفاتر يكتب فيها الحديث والفقه حتىٰ أصبح إمامًا فاضلاً وعالما فقيهًا وقاضيًا عادلاً، كثير الصواب، حاضر الجواب، قال له رجل ذات يوم: ما تقول فيمن أراد أن يقنت في الصبح قبل الركوع فقنت بعده؟ فقال: هذا رجل أراد أن يخطئ فأصاب، وكان ـ رحمه الله ـ أحد الحفاظ لحديث رسول الله ﷺ، فقد ذكر ابن إسحاق الواسطي أنه سمع منه تسعة آلاف حديث، وقال عنه العالم الرباني عبد الله بن المبارك: هو أعلم بحديث بلده من سفيان الثوري.

وكان شريك محبًا للعلم، معظمًا له، أتاه ابن أمير المؤمنين المهدي وسأل عن حديث فلم يلتفت إليه شريك، فأعاد عليه السؤال فلم يرد عليه، فقال له: كأنك تستخف بأبناء الخلفاء؟ فقال: لا، ولكن العلم أكبر عند أهله من أن يضيعوه، فجلس الفتىٰ علىٰ ركبتيه وسأله، فقال شريك: هكذا يطلب العلم[1].

وعرض عليه قضاء الكوفة، فاعتذر، فألح عليه أبو جعفر المنصور فقال: ياأمير المؤمنين، إني أنظر في الصلاة والصوم، ولا أحسن القضاء، فقال المهدي: احكم بما تحسن، واكتب إلينا بما لا تحسن.

---

(١) تاريخ الخلفاء (١/ ٢٧٥).

وتولىٰ شريك قضاء الكوفة، فكان رحيمًا في حكمه، عادلاً في قضائه، لا يخشىٰ في الحق إلا الله، وكان حكمه نافذًا علىٰ الخلفاء والأمراء، وكان لا يجلس للحكم حتىٰ يتغدىٰ ويقول لنفسه : يا شريك، اذكر الصراط وحدته، يا شريك، اذكر وقوفك بين يدي الله ثم يأمر بإدخال الخصوم[1] .

جلس ذات يوم للقضاء، فدخلت عليه امرأة وقالت : أنا بالله ثم بك، يا نصير المظلومين ـ فقال شريك : من ظلمك ؟

قالت : الأمير موسىٰ بن عيسىٰ ابن عم أمير المؤمنين المهدي، فقال القاضي : وكيف؟

قالت : توفي أبي، وترك لنا بستانًا كبيرًا علىٰ شاطئ الفرات، فبنيت بيني وبين إخوتي حائطًا، وجعلت في البستان رجلاً فارسيًا خبيرًا يصلح شأنه، وكنت أقبض إيراد البستان وأنفق منها علىٰ نفسي وأولادي، واشترىٰ الأمير موسىٰ بن عيسىٰ بساتين إخوتي ورغب في أن يشتري بستاني وساومني ورغبني ، فلم أوافق، فغضب وهددني وتوعدني، فلم أخش تهديده، فلما كانت الليلة الماضية بعث خمسمائة غلام وفاعل فاقتلعوا الحائط ، فأصبحت لا أعرف حدود بستاني من بساتينه ، واختلط نخلي بنخله، وزرعي بزرعه، فأحضر القاضي ورقة وكتب فيها :

أما بعد، أبقىٰ الله الأمير وحفظه وأتم نعمته عليه، فقد جاءتني امرأة وذكرت أن الأمير اغتصب بستانها بالأمس ، فليحضر الأمير مجلس الحكم الساعة ، أو يوكل وكيلاً ، والسلام.

وأرسلها إلىٰ الأمير، فلما قرأ الأمير الكتاب غضب وقال لصاحب الشرطة :

---

(١) البداية والنهاية (١٠/ ١٧١).

اذهب إلى شريك القاضي وقل له بلساني : يا سبحان الله!! ما رأيت أعجب منك، كيف تنصف على الأمير امرأة حمقاء لم تصح دعواها؟! فقال صاحب الشرطة : وهل حكم القاضي فأنصفها؟

فقال الأمير : حسبها من الإنصاف أن أقف معها في مجلس القضاء، فقال صاحب الشرطة : لو تفضل الأمير فأعفاني من هذه المهمة ، فقال الأمير غاضبًا : ويلك، اذهب ولا تتردد.

وخرج صاحب الشرطة من عند الأمير حيران، لا يدري كيف يتصرف، فهو يعلم أن القاضي صارم وسيتهمه بممالأة الأمير ، ثم حسم أمره وتوجه إلى القاضي وبلغه رسالة الأمير، فقال القاضي : لقد أرسلت إلى الأمير ليحضر بنفسه أو يرسل وكيله ، فهل أنت وكيله؟ فقال صاحب الشرطة : لا.

فقال القاضي للحاجب: خذه وضعه في الحبس، وبلغ الخبر إلى الأمير موسى بن عيسى، فاستشاط غضبًا، ووجه حاجبه إلى القاضي ليقول له على لسان الأمير : صاحب الشرطة رسول، أدى رسالة كلفه بها الأمير، فلماذا تحبسه؟ فلما سمع القاضي قول الحاجب أمر بحبسه مع صاحب الشرطة.

فلما بلغ الخبر إلى الأمير ازداد غضبًا، وأرسل إلى كبراء الكوفة وأصدقاء القاضي وأعلمهم بالأمر، وقال لهم : اذهبوا إليه، وأبلغوه سلامي، وأعلموه أنه استخف بي وبرسولي، وإني لست كالعامة ولا أنا من العامة ، وإنه يعلم ذلك.

فذهبوا كلهم إلى شريك وبلغوه رسالة الأمير، وزاد كل واحد منهم شيئًا من عنده ليستميل به القاضي ويترضاه ، فلما انقضى كلامهم قال: مالي أراكم تكلمونني في أمر لا أقدر فيه على غير الحق!! وهل وضع القضاء للفصل بين العامة فحسب؟ إنكم فتنة وجزاؤكم الحبس، فدهش الوسطاء من قرار القاضي

وقالوا : أجادٌّ أنت يا شريك ؟

قال : نعم، حتىٰ لا تعودوا لمساندة ظالم، ومضىٰ بهم الحاجب إلىٰ السجن وبلغ الخبرُ الأميرَ موسىٰ بن عيسىٰ، فركب فرسه، وذهب بفرسانه إلىٰ باب السجن وفتحه عنوة، وأخرجهم كلهم، فلما علم شريك قال لغلامه : هات متاعي كله، والحقني ببغداد، والله، ما طلبنا القضاء من بني العباس، ولكن هم الذين أكرهونا عليه، ولقد ضمنوا لنا أن نكون فيه أعزة، ولا سبيل إلىٰ البقاء في مجلس القضاء بعدما حدث من ابن عم أمير المؤمنين.

وعندما علم الأمير موسىٰ بن عيسىٰ بالخبر جزع وخاف، وأسرع في موكبه ولحق بالقاضي وجعل يناشده الرجوع، ويقول : يا أبا عبد الله، أصلحك الله، تثبت وانظر قليلاً، أتحبس إخواني وأعواني بعد أن حبست رسولي؟

فقال شريك : نعم، لأنهم مَشَوا لك في أمر ما كان لهم أن يمشوا فيه.

فقال الأمير : لا تثريب عليهم؛ لأني أنا الذي أوفدتهم إليك.

فقال شريك : قبولهم للوفادة تعطيل للقضاء، وعدوان علىٰ العدل، وعون علىٰ الاستهانة بحقوق الضعفاء، إما يردوا جميعًا إلىٰ السجن أو أذهب إلىٰ أمير المؤمنين المهدي فأستعفيه من قضاء الكوفة، بل ومن القضاء كله.

فخشي الأمير عاقبة الأمر وأسرع بردِّهم إلىٰ الحبس، وقال للقاضي : قد رددتهم إلىٰ الحبس، فعد إلىٰ مجلسك.

فقال شريك : أما الآن فنعم، ثم عاد إلىٰ مجلس القضاء، واستدعىٰ المرأة المتظلمة، فجاءت وقال لها : هذا خصمك قد حضر.

فقال الأمير موسىٰ : أرجو أن تأمر بإخراج المسجونين.

فقال شريك : لك ذلك، ثم سأل الأمير عما تدعيه المرأة، فقال : صدقت.

قال: ترد ما أخذت منها وتبني حائطها سريعًا كما كان؟

قال الأمير: أفعل ذلك.

فقال شريك للمرأة: أبقي لك عليه شيء؟

قالت: بيت الرجل الفارسي ومتاعه.

فقال الأمير: ويرد ذلك كله.

فقال شريك للمرأة: أبقي لك عليه شيء؟

قالت: لا، وبارك الله عليك، وجزاك خيراً.

فقال لها شريك: قومي، فقامت من مجلسه وذهبت، فأخذ شريك بيد الأمير وأجلسه في مجلسه.

وقال: السلام عليك أيها الأمير، أتأمر بشيء؟

فقال الأمير: أي شيء آمر ـ وضحك!

فقال له شريك: أيها الأمير، ذاك حق الشرع، وهذا القول الآن حق الأدب.

فقام الأمير وهو يقول: من عظم أمر الله، أذل الله له عظماء خلقه[1].

وظل شريك يحكم ويقضي بين الناس بالعدل، حتى توفي سنة ١٧٧هـ عن نيف وثمانين سنة قضاها في الحكم بين الناس ونصرة المظلوم.

* * *

(١) مجلة الأمة القطرية ذو الحجة ١٤٠٢هـ/ أكتوبر ١٩٨٢م.

الشرع عمود السلطان
قاضي القضاة أبو عمر

القاضي أبو عمر المالكي محمد بن يوسف بن إسماعيل بن حماد بن زيد قاضي قضاة بغداد وسائر البلاد، كان من أئمة الإسلام علمًا ومعرفة وفصاحة وبلاغة وعقلاً ورياسة، كان يضرب بعقله المثل.

ولد في بيت علم وصلاح، فأبوه القاضي الحافظ يوسف بن إسماعيل، فنشأ محبًّا للعلم بكل جوارحه، سمع الحديث من والده ومن سليمان بن حرب، ومَنْ في طبقتهم من كبار العلماء، واجتهد في تحصيل العلم حتىٰ أصبح من سادات الفقهاء وأكابر العلماء، روىٰ الكثير من الأحاديث عن شيوخه، وروىٰ عنه كثير من العلماء والحفاظ.

كان إذا جلس للحديث جلس العالم الحافظ أبو القاسم البغوي عن يمينه - وهو قريب من سن أبيه - وجلس عن يساره ابن صاعد وبين يديه الحافظ أبو بكر النيسابوري وسائر الحفاظ حولهما من كل جانب[1].

وَلِيَ قاضي قضاة البصرة والجانب الشرقي من بغداد.

وكان لا يخشىٰ في الحق أحدًا كبيرًا أم عظيمًا، وذات يوم جلس للحكم في نزاع بين خادم أمير المؤمنين الخليفة العباسي المعتضد بالله وبين أحد المسلمين، وظن الخادم أن قربه ومكانته عند الخليفة تسمح له بمعاملة خاصة، وعندما طلب منه القاضي الجلوس بجوار خصمه تعالىٰ ورفض أن يتساوىٰ بخصمه

(١) البداية والنهاية ابن كثير (١١/ ١٧١).

وأبى الجلوس بجانبه وأصر القاضي على جلوسه بجوار خصمه، فغضب الخادم وتوعد وهدد، فقال القاضي: آتوني بدلأل حتى أبيع هذا العبد وأبعث بثمنه إلى أمير المؤمنين ثم أمر الحاجب بأن يلزمه بالجلوس بجوار خصمه، فأجلسه الحاجب، فجلس على مضض، ولما قضى بينهما أمره القاضي بالانصراف، فذهب إلى الخليفة يبكي وحكى له ما حدث، فقال الخليفة: والله، لو باعك لأجزت بيعه، وما استرجعتك أبدًا، فليس منزلتك عندي تزيل منزلة الشرع، فإن الشرع عمود السلطان وقوام الأديان[1].

وعندما قبض على الحلاج سنة ٣٠٩ هـ وجدوا عنده كتبًا تدعو إلى الزندقة والكفر، فناظره القاضي أبو عمر وأقام عليه الحجة، فوجده خالي الوفاض، لا علم ولا دين، مصرًا على أفكاره وزندقته، فأفتى بقتله، فقتل واستراح الناس من شره، وكان ذلك من أفضل أحكامه وأصوبها.

وكان - رحمه الله - ثقة عفيفًا، جميل الأخلاق، حسن المعاشرة، كريمًا، اجتمع عنده أصحابه ذات يوم، وجيء له بقماش فاخر ليشتريه بنحو خمسين دينارًا، واستحسنه الحاضرون، فاشتراه ثم وزعه عليهم، وله مناقب كثيرة ومحاسن جمة ومصنفات كثيرة.

توفي - رحمه الله - في شهر رمضان سنة ٣٢٠ هـ، وله ٧٨ سنة وقد رآه بعض أصحابه في المنام فقال له: ما فعل الله بك؟ فقال: غفر لي بدعوة الرجل الصالح إبراهيم الحربي[2].



(١، ٢) تاريخ الخلفاء.

أمير البحر
القاضي أسد بن الفرات[1]

العالم الجليل والقاضي العادل والمجاهد الشهيد أسد بن الفرات بن سنان، كان بطلاً من أبطال الإسلام، وبحراً من بحور العلم، وعلمًا من أعلام القضاء، كان يعتز باسمه في مواطن الشدة ويقول: أنا أسد وهو خير الوحوش، وأبي الفرات خير الماء، وجدي سنان وهو خير السلاح.

ولد سنة ١٤٢هـ في مدينة «حران» بديار بكر ثم انتقلت أسرته إلى تونس وهو مازال طفلاً صغيراً، نشأ على حب العلم، وكان لا يعرف غير العلم والدروس والتحصيل، حفظ القرآن الكريم وهو صغير، ثم أخذ العلم من كبار علماء تونس، وأخذ عنهم الفقه المالكي وبرع فيه، وعندما بلغ الثلاثين من عمره كان قد استوعب ما عند علماء تونس من علوم، فعزم سنة ١٧٢هـ على الرحلة إلى المدينة المنورة لطلب العلم على يد الإمام مالك، وكانت رحلة شاقة طويلة، تحملها حتى وصل إلى المدينة المنورة، وتتلمذ على يد الإمام مالك لمدة سنتين ثم رحل إلى العراق ليتلقى العلم على يد الإمام أبي حنيفة النعمان، فوجده قد انتقل إلى جوار ربه، فتلقى العلم على يد القاضي أبي يوسف ومحمد بن الحسن وهما من أكبر تلاميذ الإمام أبي حنيفة، فأخذ منهم وأخذوا منه ثم ترك العراق ورحل إلى مصر لطلب العلم على يد ابن القاسم شيخ المالكية في مصر.

---

(١) رجال من التاريخ (١/ ٦٣)، موسوعة الجهاد في الإسلام (١/ ٤١٥)، «سير أعلام النبلاء» (١٠/ ٢٥٥).

وبعد أن تمكن أسد بن الفرات من العلوم، وجمع بين علم أهل المدينة المنورة وعلم أهل العراق وعلم أهل مصر، قرر أن يعود إلىٰ «القيروان» بعد غيبة طويلة امتدت نحو عشرين عامًا قضاها في طلب العلم وتحصيله، عاد وكان عمره قد قارب الخمسين عامًا.

عاد أسد بن الفرات إلىٰ القيروان هاديًا للحق ومعلمًا للخير، وعَرَفَ الناسُ فضلَه وعلمَه فأقبلوا علىٰ دروسه، فذاع صيته وسطع نجمه، وألَّف كتاب «الأسدية» في فقه الإمام مالك، وظل يعلم الناس حتىٰ بلغ الستين من عمره سنة ٢٠٣ هـ، فولاَّه الأمير زيادة الله بن الأغلب قضاء أفريقية، فجعل القرآن والسنة دليله في الحكم بين الناس، فنصر الحق وزهق الباطل.

ومضت الأيام والأعوام وأسد بن الفرات يقضي بين الناس وينشر العلم حتىٰ عزم الأمير زيادة الله - أمير المغرب - علىٰ فتح جزيرة صقلية وجهز أسطولاً كبيرًا مكونًا من ثمان وتسعين قطعة بحرية، تحمل عشرة آلاف جندي وتسعمائة فارس، وطلب القاضي أن يشارك في هذه الحملة البحرية مع الجنود المجاهدين، فلما رأىٰ منه الأمير الجد والإخلاص ولاه إمارة الحملة، فظن أسد أنه عزله من القضاء، فقال له الأمير: أنت قاضٍ وأنت أمير، فكان أول من جُمعَ له بين المنصبين.

وفي شهر ربيع الأول عام ٢١٢هـ خرج الناس لوداع الحملة من ميناء «سوسة» ووقف القاضي خطيبًا يحض الناس علىٰ طلب العلم والجهاد في سبيل الله، فقال: أيها الناس، والله ما وَلِيَ لِي أبٌ ولا جدٌّ ولاية قطٌّ، ولا بلغ أحد من أسلافي ما بلغت، وما بلغته إلا بالعلم، فعليكم بالعلم، فأجهدوا أذهانكم، وأتعبوا أبدانكم في طلب العلم وتحصيله وتدوينه، وصابروا علىٰ كل الشدائد، فإنكم تنالون فخر الدنيا وسعادة الآخرة.

وسارت السفن تحمل على ظهورها رهبان الليل وفرسان النهار حتى بلغت شواطئ جزيرة صقلية، فأصدر الأسد أمره بالهجوم، وهجم المسلمون وفي طليعتهم أميرهم وعالمهم القاضي الأسد، وحاربوا أعداءهم حتى سيطروا على شواطئ الجزيرة بعد قتال عنيف، قاتل فيه القاضي كالأسد الكاسر، ولم يبالِ بالرماح ولا الجراح التي أصابته.

وبعد أن سيطر المسلمون على شواطئ الجزيرة بدأ الجيش التوغل داخل الجزيرة لفتح مدنها، وعندما وصل الجيش إلى مدينة سرقوسة حاصرها المسلمون من كل جانب، وأثناء الحصار توفي المجاهد الشهيد والبطل الصنديد القاضي أسد بن الفرات متأثراً بجروحه سنة ٢١٣ هـ، ودفن تحت أسوارها، وأتم الله النصر للمسلمين وفتحت الجزيرة، وسكنها المسلمون واستوطنوها.

رحم الله البطل الشهيد أسد بن الفرات أمير البحر، وقاضي البر، الذي جمع بين العلم والعمل، وبين الفقه والجهاد، وبين سعي الدنيا وسعي الآخرة، فكان في القضاء عادلاً، وفي الفقه إماماً ومعلماً، وفي الحرب قائداً وشهيداً، لم يمنعه تقدم السن من الجهاد، فترك القلم والمحبرة، واستبدل بهما السيف والرمح حتى سقط شهيداً سنة ٢١٣ عن عمرٍ يقارب واحداً وسبعين سنة.

* * *

ابن خلدون قاضي القضاة[1]
مؤسس علم الاجتماع

قاضي القضاة مؤيد الدين أبي زيد عبد الرحمن بن خلدون الأندلسي، قال عنه الإمام الشوكاني في كتابه المسمى «البدر المطالع» رجل فاضل، جمٌ الفضائل، رفيع القدر، وقور المجلس، عالي الهمة، قوي الجأش، متقدم في الفنون العقلية والنقلية، كثير الحفظ بارع الخط، حسن المعاشرة، فخر من مفاخر العرب.

ولد أول رمضان سنة ٧٣٢هـ بمدينة تونس في فترة شهدت انهيار العالم الإسلامي واستقلال الأمراء وتفرقهم وانحسار المد الإسلامي في الأندلس، درس العربية على يد أبيه، وأخذ الفقه المالكي عن قاضي القضاة ابن عبد السلام، وتعلم الحديث الشريف والفلسفة والمنطق على يد علماء تونس، وعندما بلغ الثامنة عشرة من عمره وقع طاعون «الجارف» سنة٧٤٩هـ، وراح ضحيته مئات الألوف من أهل تونس، وهلك فيه أبواه، وترتب عليه هجرة معظم علماء تونس إلى المغرب، فهاجر ابن خلدون إلى المغرب وانشغل بتحصيل العلم على يد علماء المغرب حتى برع في سائر العلوم وتقدم في كل الفنون، ومهر في الأدب.

وعندما بلغ العشرين من عمره تولى كتابة السر والنظر في المظالم بمدينة

(١) قادة الفكر الإسلامي صفحة (٢٢) وما بعدها، شذرات الذهب (٤/ ٧٣)، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب (٢/ ٩٢٥).

فاس، فأجاد وأفاد، ثم وشى به الحاسدون عند سلطان المغرب فاعتقله سنة ٧٥٢هـ، وظل في الحبس عامين ثم أفرج عنه عام ٧٥٣هـ، فطلب الرحيل إلى الأندلس فأذن له، فتوجه إلى غرناطة فكان موضع إعزاز وتكريم من جانب سلطانها ابن الأحمر، وقربه وجعله رسوله إلى ملك الإفرنج في أشبيلية، فقام بالأمر خير قيام، وعاش مكرمًا محبوبًا في غرناطة حتى سنة ٧٦٦هـ عندما طلب الإذن بالرحيل إلى المغرب فأذن له، فتوجه إلى مدينة بجاية، فأكرمه أميرها وجعله حاجبه، وتفرغ ابن خلدون للمطالعة والتأليف والتدريس وقام بدراسة تحليلية لتاريخ العرب والدول الإسلامية، وكانت تلح عليه أسئلة صعبة. . . . ماذا حدث للعالم الإسلامي؟ لماذا انهار؟ كيف نشأت تلك الدول العديدة؟ لماذا تداعت بسرعة؟ هل كان ذلك وليد الصدفة؟ هل كان ذلك بسبب قوى خارجية؟ هل كان ذلك لأسباب طارئة؟

وانشغل بالبحث عن هذه الأسئلة وتفرغ للبحث في أحوال الأمم والشعوب التي عاصرها واحتك بها، حتى تبين له أن التطور سنة الحياة الاجتماعية، وأن أحوال الأمم والشعوب لا تدوم على وتيرة واحدة ومنهاج مستقر، إنما هي اختلاف على مر الأيام والأزمان وانتقال من حال إلى حال، وكما يكون ذلك في الأشخاص يكون كذلك في الدول والأمم .

وشرع في كتابة ما وصل إليه في كتاب ـ من أشهر كتبه ـ سماه «العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر» في ثماني مجلدات ومقدمة، وقد استغرقت المقدمة وحدها خمس شهور حتى أتمها، ثم بدأ بعد ذلك في كتابه الذي أضفى عليه المجد والشهرة، وانتهى منه في أوائل سنة ٧٨٤هـ إلا جزءًا يسيرًا أتمه خلال إقامته بمصر. واشتهر كتابه شهرة واسعة في أروبا وحرص على اقتنائه العلماء والأمراء وقال عنه المفكر كارادغون في كتابه المسمى «مفكرو

الإسلام» الجزء الأول: أنجبت أفريقيا الإسلامية عالمًا اجتماعيًا من الطبقة الأولى في شخص ابن خلدون الذي لم يعرف قبله عالمًا أوتي تصورًا عن فلسفة التاريخ أصح ولا أوضح من تصوره وهو من دون شك الجد الأعلى لعلمائنا الاجتماعيين المحدثين.

وعندما وصل الثانية والخمسين من عمره ترك المغرب لأداء فريضة الحج سنة ٧٨٤هـ، وبعد أداء الحج عاد للقاهرة، وأحبها وأحبه الناس، فاستقر بها وجلس في الجامع الأزهر يعلم الناس حتى سنة ٧٨٦هـ حين ولاه سلطان مصر الظاهر برقوق قضاء المالكية بالديار المصرية بجانب التدريس، فظل يقضي بين الناس بالحق ويعلم الناس حتى عزل عن القضاء، فتفرغ للتدريس والتأليف، وحينما هاجم الطاغية الدموي تيمور لنك بلاد الشام وحاصر دمشق ترك ابن خلدون التدريس والتأليف واستبدل بهما السيف والرمح وخرج مع جيش مصر وهو شيخ كبير، وعندما التقى الجيشان ذهب إلى تيمور لنك في معسكره ورجاه رفع الحصار عن دمشق وحقن دماء المسلمين فلم يقبل رجاءه، ونجاه الله منه.

توفي - رحمه الله - في آخر رمضان سنة ٨٠٨هـ، وله ستة وسبعون سنة، قضاها ناشرًا للعلم في تونس والمغرب والأندلس والجزائر ومصر، وأصبح كتابه ومقدمته حجة في علم الاجتماع، وسيظل صالحًا للاستفادة منه حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

رحم الله هذا العالم الجليل، فقد كان له من كل شيء حظٌّ وافرٌ، فهو قاضي القضاة وهو الباحث الاجتماعي، وهو المؤلف الشهير، وهو السجين المعتقل، وهو السفير بين الملوك والأمراء، وهو الجندي المقاتل في آخر حياته، وولد في أول رمضان وهذه مكرمة، وتوفي في آخر رمضان وهذه مكرمة ثانية.

ابن دقيق العيد[1]
خاف الله فخافه كل شيء

هو الإمام الفقيه، الحافظ، المحدث، والعلامة المجتهد، شيخ الإسلام تقي الدين أبو الفتح محمد بن علي بن وهب ابن العالم الفقيه علي بن وهب المعروف بمجد الدين القشيري.

ولد سنة ٦٢٥هـ بالقرب من ساحل ينبع أثناء سفر أسرته لقضاء الحج، وقد حمله أبوه وطاف به الكعبة، ودعا الله أن يجعله عالمًا ينفع المسلمين.

وبعد قضاء الحج عادت الأسرة إلى مصر، وعاش ابن دقيق العيد في مدينة قوص في صعيد مصر، وتولى والده رعايته وتعليمه، فعاش شبابه تقيًّا نقيًّا ورعًا، طاهر الظاهر والباطن، يتحرى الحلال في كل أمور دينه ودنياه، حفظ القرآن حفظًا تامًّا، وأخذ الفقه المالكي من أبيه، وتعلم النحو واللغة ثم رحل إلى القاهرة لطلب العلم على يد علمائها الكبار، وظل ملازمًا لدروس شيخ الإسلام وسلطان العلماء العالم العامل العز بن عبد السلام، وأخذ عنه علم الأصول وفقه الإمام الشافعي.

وبعد وفاة سلطان العلماء تحول لدراسة الحديث الشريف على يد الحافظ المنذري وعبد الرحمن البغدادي ثم رحل إلى الشام والحجاز طالبًا للعلم، ثم عاد للأسكندرية وأخذ من علمائها حتى أصبح جامعًا للعلوم، مقدمًا على

---

(١) البدر الطالع (٢/ ٢١٤)، «شذرات الذهب» (٣/ ٥) علماء في وجه الطغيان.

أقرانه في معرفة علل الحديث، ماهراً في استنباط الأحكام من القرآن والسنة، وعاد إلىٰ بلدته قوص وجلس للتدريس، وقصده الناس من كل مكان ينهلون من علمه الغزير، حتىٰ علا نجمه واشتهر علمه؛ فأسند إليه منصب القضاء في بلدته قوص، فأعان المظلوم ونصر الحق، وقضىٰ بالعدل وكان ثقة في كل ما يقول، فأحبه الناس.

وكان يعلم الناس ويعلم نفسه، فكان يقضي الليل في القراءة والعبادة، فكان يطالع في الليلة الواحدة المجلد والمجلدين، ثم يقوم يتهجد بالليل، وقد سمعه بعض أصحابه ذات ليلة يقرأ قوله تعالىٰ: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَسَاءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٢] . وظل يكررها حتىٰ طلع الفجر.

وفي عام ٦٩٥هـ توفي عبد الرحمن ابن بنت الأعز قاضي مصر وخلا بموته هذا المنصب وذلك في عهد السلطان منصور بن لاجين وقال أحد المقربين للسلطان: هل أدلك علىٰ محمد بن إدريس الشافعي وسفيان الثوري وإبراهيم ابن أدهم؟

فقال السلطان: نعم، فقال له: عليك بابن دقيق العيد، فهو من أجلِّ علماء زمانه وأكثرهم ورعًا، مداومًا علىٰ العلم في ليله ونهاره، فعرض عليه السلطان منصب قاضي القضاة، فامتنع ورفض، فألحوا عليه مرات كثيرة حتىٰ قبل منصب قاضي القضاة.

وفور توليه المنصب أرسل منشوراً عامًا لكل القضاة يدعوهم فيه إلىٰ الالتزام بشرع الله والإعراض عن المحسوبيات والوساطات، وحذر من تضعف نفسه أمام رغبات الحكام، وخوفهم بعذاب الله، ورغبهم في حسن الجزاء في الآخرة وأعلمهم أن سبب إرسال هذا المنشور ما لمسه من غفلة القلوب وتقاعس الهمم علىٰ ما يجب للرب علىٰ المربوب، ولاسيما القضاة

الذين يحملون عبء الأمانة على كواهل ضعيفة.

وقد شاء الله لهذا الناصح المحذر أن يختبر في صدام مرير مع السلطة، فقد حدث في سنة ٧٩٧هـ أن السلطان حسام الدين لاجين أعطى الأمير منكوتمر سلطة واسعة وجعله نائب السلطان في مصر، وأخذ منكوتمر ينكل بأعدائه، وكانت له رغبة جامحة في جمع المال من كل الطرق، وحدث أن تاجراً كبيراً مات وترك ثروة هائلة، وأراد الأمير منكوتمر أن يستولي على هذه الثروة، فأمر أحد أتباعه أن يدعي أنه شقيق التاجر المتوفى ليأخذ الميراث، وتقدم الأخ المزعوم إلى قاضي القضاة مطالبًا بميراثه من التاجر، فطلب منه ابن دقيق العيد شاهداً على صحة ما يقول، فقال الأخ المزعوم: شاهدي الأمير منكوتمر نائب السلطان، فرفض ابن دقيق العيد شهادة نائب السلطان وردها، فغضب نائب السلطان وأرسل الأمير «كرت» إلى ابن دقيق العيد ليقنعه بإثبات أخوة التاجر بشهادة نائب السلطان.

ولكن ابن دقيق العيد قال للأمير «كرت»: وماذا يترتب على شهادته؟ فاحمر وجه الأمير «كرت» وقال: هو عندنا وعندكم عدل، فقال ابن دقيق العيد: والله ما لم تقم عندي بينة شرعية تُثْبِتُ إخوة الرجل للتاجر بغير شهادة نائب السلطان فلن أثبتها بأي حال، فرجع الأمير إلى نفسه وإلى ضميره، وقال: لا إله إلا الله، هذا هو الإسلام.

ومضت أيام ثم جاء لابن دقيق العيد رسولٌ يخبره أن نائب السلطان يريده، وشعر ابن دقيق العيد أن نائب السلطان يريد التدخل في شئون القضاء، فقال للرسول: قل له إن طاعتك ليست واجبة عليَّ، ثم التفت إلى من حوله من القضاة وقال: أشهدكم أني عزلت نفسي، قولوا له يولي غيري، وعاد إلى بيته وأغلق بابه.

وقامت ضجة في البلاد، وعلم السلطان لاجين بالأمر، فعنف الأمير منكوتمر على تهوره وتسرعه، وأرسل إلى ابن دقيق العيد يستدعيه ليسترضيه فأبى واعتذر، ولم ييأس السلطان، فطلب من كبار العلماء في مصر أن يثنوا قاضي القضاة عن عزمه ويرجونه مقابلة السلطان، وله أن يتمسك برأيه كما يشاء، وبعد إلحاح وافق ابن دقيق العيد وقابل السلطان فتلقاه السلطان بحفاوة وفرح وألح عليه أن يجلس معه على كرسي العرش.

فبسط الشيخ العالم الصادق منديله ـ وكان من الكتان ـ فوق العرش المزين بالذهب والحرير، ثم جلس في اعتداد وثقة وجعل السلطان يتلطف إليه ويرجوه أن يعود إلى منصبه ويحكم بما يشاء، فَقَبِلَ بعد إلحاح، وانتهز السلطان قبوله وعودته للقضاء مرة أخرى وقال في توسل: ياسيدي، هذا ولدك «منكوتمر» فادع له الله، فنظر ابن دقيق العيد إلى «منكوتمر» وقال: منكوتمر لا يصلح لأن يجيء منه شيء، ثم قام وانصرف ونسي منديله على الكرسي؛ فتزاحم عليه السلطان والأمراء، كلٌّ يطلب قطعة منه.

وكان له موقفٌ آخر يدل على سلامة العقيدة، ففي سنة ٦٨٠هـ هجم التتار على الشام، وخرج السلطان لقتالهم وطلب من العلماء الاجتماع بالمسجد وقراءة صحيح البخاري، وذات يوم دخل ابن دقيق العيد المسجد، وقال للعلماء: ماذا فعلتم ببخاريكم؟ يعلمهم أن النصر لا يتم إلا بما أمر الله بإعداده من قوة، ومن رباط الخيل، وليس بقراءة البخاري.

وظل رحمه الله يشغل منصب قاضي القضاة مدة سبع سنوات كان مثالاً للعدل والصدق والنزاهة والمساواة والورع، لا يخشى في الله والحق لومة لائم، أو بطش سلطان، فما كان يراه حقًّا، يطمئن إليه الشرع يقضي به ولو كان

في ذلك غضبٌ للحكام أو السلاطين، وكان يقول: ما تعلمت كلمةً، ولا فعلت فعلاً إلا وأعددت له جوابًا بين يدي الله عز وجل.

توفي ـ رحمه الله ـ صبيحة يوم الجمعة الحادي عشر من صفر سنة ٧٠٢هـ وله ٧٧عامًا قضاها في خدمة الإسلام عالمًا ومتعلمًا، وترك مؤلفات كثيرة أشهرها: «الإلمام الجامع لأحاديث الأحكام» وكثيراً من المؤلفات النافعة، وقد وصفه المؤرخون بأنه حافظٌ للسانه، مقبلٌ على شأنه، وقف نفسه على العلم، فأوقاته كلها مشغولة بالدرس، والمطالعة والتحصيل والإملاء، لم تر العين مثله.

وكان ـ رحمه الله ـ كريمًا، جوادًا، سمحًا، تام الورع، شديد التدين، مكبًّا على المطالعة في ليله ونهاره، وكان من المهابة والجلال بحيث يستمع الملوك إلى منطقِه مكرهين أو طائعين، خاف اللهَ؛ فخافهُ كلُّ شيء.

* * *

ابن خلكان[1]
القاضي المؤرخ

أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر بن خلكان، قاضي القضاة الملقب بشمس الدين أبي العباس، كان جميل الصورة، غزير الفضل، فصيحًا، نزيه النفس، كريمًا جوادًا، إمامًا عالمًا، وأديبًا فاضلاً، وقاضيًا عادلاً، ومؤرخًا جامعًا، له الباع الطويل في الفقه والنحو والأدب، غزير العلم، كامل العقل، أحد علماء عصره المشهورين، وسيد أدباء دهره المذكورين، جمع بين علوم كثيرة.

ولد سنة ٦٠٨هـ في مدينة أربل من أسرة معروفة بالعلم والفقه وولاية المناصب الدينية، فكان والده يتولى التدريس بالمدرسة المظفرية بأربل، وكانت له سمعة طيبة بين علماء عصره، ومنزلة كريمة لدى سلطان بلده، توفي والده سنة ٦١٠هـ، وهو ما مازال طفلاً صغيرًا فتولت أمه تربيته هو وأخاه بهاء الدين[2]، واستطاع بجده ومثابرته على تحصيل العلم أن يكون عالمًا كبيرًا مشهورًا، وساعده على ذلك أن أربل كانت محط كثير من العلماء والمحدثين، فنال هو وأخوه حظًا كبيرًا من العلم، فقد سمع صحيح البخاري من الشيخ الصالح أبي جعفر بن هبة الله بن المكرم، وأخذ علم الحديث عن الشيخ أثير

(١) طبقات الشافعية (٢/ ١٦٦)، البداية والنهاية (٣/ ٣٠١)..

(٢) أحد العلماء المشهورين تولى قضاء بعلبك وله كتاب في التاريخ سماه «التاريخ الأكبر في طبقات العلماء وأخبارهم» توفي سنة ٦٨٢.

الدين المفضل، وسمع كتاب «التنبيه» في الفقه من الشيخ أحمد بن موسىٰ وأخذ الأدب علىٰ يد الشيخ جمال الدين أبي المظفر، ولم يكتفِ بذلك، فكان كثير التردد علىٰ الموصل للأخذ من علمائها، وتمكن وبرع في الفقه علىٰ يد شيخ الموصل وعالمها كمال الدين بن يونس.

وفي سنة ٦٢٦هـ، بدأت نفسه تتوق إلىٰ مزيد من العلم، فرحل إلىٰ المدن الشهيرة بعلمائها، وكان موضع رعاية وتكريم عند العلماء في كل بلد يذهب إليه بسبب شخصية والده ومكانته العلمية عند العلماء في كل بلد، ففي حلب نزل ابن خلكان في ضيافة قاضيها الشهير أبي المحاسن المعروف بابن شداد، فيسَّر له لقاء العلماء .

فقرأ «الوجيز» للإمام الغزالي علىٰ الشيخ محمد بن بكر المعروف بابن الخباز، وقرأ كتاب « اللمع » لابن جني علىٰ الشيخ أبي البقاء يعيش بن علي بن يعيش، وأخذ الفقه علىٰ يد العالم الإمام الجواليقي ثم رحل إلىٰ دمشق، فأخذ من علمائها التفسير والحديث والفقه وأسماء الرجال وعلوم اللغة.

وفي عام ٦٣٦هـ رحل إلىٰ القاهرة وكانت مركزاً للعلوم، غنية بعلمائها الكبار في كل فن وعلم، فعاش في مصر وأخذ من علمائها حتىٰ أصبح بحراً من بحور المعرفة، وأحد الأئمة الفضلاء، والسادة العلماء، وقصده طلبة العلم من كل حدب وصوب، وكان في درسه بصيراً بالعربية، علامة في الأدب والشعر وأيام الناس.

وفي عام ٦٥٤هـ بدأ ابن خلكان في كتابة مؤلفه الشهير « وفيات الأعيان » ويشمل علىٰ ٤٨٦ ترجمة لأعيان ومشاهير القرن السابع الهجري، وجعله مرتبًا علىٰ حروف اللغة العربية، ولم يجعله قاصراً علىٰ طائفة محددة مثل

العلماء أو الأمراء، بل ذكر فيه كل من له شهرة بين الناس، ويقع السؤال عنه، ولكنه اضطر للتوقف أثناء ولايته القضاء في دمشق، ثم عاد وأتمه سنة ٦٧٢هـ

عين نائبًا لقاضي قضاة مصر، وظل يشغل هذا المنصب حتىٰ عام ٦٥٩هـ ، فحكم بالحق ونصر المظلوم حتىٰ عزل سنة ٦٦٩هـ فاتجه إلىٰ التدريس بالقاهرة، ثم عاد لمنصب قاضي القضاة بالشام مرة أخرىٰ، وظل يشغل هذا المنصب حتىٰ عام ٦٨٠هـ حيث عزل وتفرغ للتدريس والتعليم حتىٰ توفي سنة ٦٨١هـ عن ثلاث وسبعين سنة، فكان نعم القاضي، ونعم العالم والمؤرخ، لا يجرؤ أحدٌ أن يذكر أحداً عنده بغيبة، وافر الحرمة كريم الأخلاق .



القفطي[١]
القاضي الأكرم والوزير الأوحد

علي بن يوسف بن إبراهيم بن شيبان، القاضي الأكرم والوزير الأوحد، جمع بين عراقة الأصل وصراحة النسب، فهو من قبيلة شيبان إحدى القبائل العربية الكبيرة الشهيرة الأصيلة التي نزحت من الكوفة أثناء الفتح الإسلامي واستقرت بمصر.

ولد علي بن يوسف سنة ٥٦٨ هـ في مدينة «قفط»، وإليها ينتسب، ونشأ في بيت علم ودين؛ فأبوه يوسف بن إبراهيم الملقب بالقاضي الأشرف، كان كريمًا فاضلاً، وكاتبًا ماهرًا، مليح الخط، له علاقات طيبة بملوك بني أيوب، وموضع ثقتهم.

تلقى العلم على شيوخ وعلماء قفط، وكان والده يساعده ويرعاه، فأقبل على العلم بهمة عالية حتى سنة ٥٧٥هـ حين حدثت فتنة بين الشيعة والسنة، فترك والده قفط وتوجه إلى القاهرة، وكانت القاهرة في ذلك الوقت عامرة بالعلماء في كل فنٍّ وعلم، فأخذ الحديث من محمد بن محمد بن بنان الأنباري، وسمع منه كتاب «الصحاح» للجوهري، وأخذ الفقه الشافعي على يد الشيخ العالم مجد الدين القشيري، وأخذ من سيد الفقهاء وسلطان العلماء ـ العز بن عبد السلام ـ الأصول والفروع، ثم رحل إلى الأسكندرية لتلقي العلم على يد عالمها وشيخها أبي طاهر، ثم عاد إلى مسقط رأسه، فأخذ من علمائها ثم عاد للقاهرة ولم يستمر بها طويلاً، فقد عين والده واليًا على بيت المقدس سنة ٥٩١هـ فتوجه

---

(١) شذرات الذهب (٣/ ٢٣٦، ٤٣٩)، سير أعلام النبلاء (٢٣/ ٢٢٧).

معه وطاب له المقام بالأرض المباركة، وأخذ من علمائها ثم توجه مع أبيه إلى اليمن وظل بها يعلم ويتعلم حتى سنة ٦٢٤هـ عندما توفي والده، فترك اليمن وتوجه إلى حلب وانقطع للبحث والتحصيل واقتناء الكتب حتى أصبح صاحب أكبر مكتبة في حلب، وأصبحت داره مقصداً للوراقين والناسخين يجلبون له الكتب من كل مكان وهو يضاعف لهم الثمن، فهو لا يحب في الدنيا سواها، فلم تكن له زوجة، وقد جمع من الكتب ما لا يوصف، وأنفق عليها خمسين ألف دينارٍ، وقد أوصى بها عند مماته لأمير حلب.

تولى الوزارة في حلب على كره منه، فقد شغلته عن العلم، ولكنه قام بعمله خير قيام، ثم طلب إعفاءه، وعاد للدرس والتحصيل، ولكن المناصب كانت تسعى إليه، فولاّه الأمير منصب القضاء، فلم يتقاعس وظل يحكم بين الناس بالحق والعدل حتى سنة ٦٢٨هـ، فقد عاوده الحنين إلى الدرس والتحصيل، فطلب إعفاءه من القضاء حتى يتفرغ للعلم والتحصيل، فوافق الأمير وعاد مرة أخرى إلى العلم والتحصيل، وظل كذلك حتى توفي سنة ٦٤٦هـ وله ثمانية وسبعون سنة قضاها عالمًا ومتعلماً وقاضيًا ووزيراً، وكان في كل وظيفة قوّالاً بالحق، يسعى بين الناس بالبر و المعروف حتى استولى على مجامع قلوبهم، ولقبوه بالقاضي الأكرم.

وكان - رحمه الله - كريمًا سمحًا، مقدراً للعلم والعلماء، فعندما تعرضت مدينة الموصل لهجوم التتار فرَّ منها الناس، وكان من بينهم المؤرخ الجغرافي المعروف «ياقوت الرومي» فأفسح له داره، وأسكنه معه.

ورغم كثرة سفريات القفطي وانتقاله من بلد إلى آخر مع أبيه، أو سعى لطلب العلم إلا أنه ترك خمسة وعشرين مؤلفًا في كثير من الفنون والمعارف، وبصفة خاصة في التاريخ، أشهرهم «إخبار العلماء بأخبار الحكماء» و«إنباه

الرواة على أنباه النحاة » وهما من أمهات كتب التراث التي لا يستغني عنهما أي باحث أو دارس حتى يومنا هذا.

ومن مواقفه المشرفة ما قام به في «إسنا»، فقد كانت «إسنا» مشحونة بالروافض، فقام بنصر السنة، وأصلح الله به كثيراً من الناس، وهمت الروافض بقتله، فحماه الله منهم.

توفي رحمه الله سنة (٦٤٦ هـ) وهو ابن ٧٨ سنة بعد عمر مديد وعمل سعيد وعلم مفيد

❊ ❊ ❊

الماوردي[1]
لو حابيت أحداً لحابيتني

الإمام الجليل والعالم الكبير، رفيع الشأن عظيم القدر، أقضى القضاة العلامة علي بن محمد بن حبيب المكنى بأبي الحسن الملقب بالماوردي، كان حليمًا وقورًا أديبًا، لم ير أصحابُهُ ذراعَه يومًا من شدة حيائه وأدبه.

ولد الماوردي سنة ٣٦٤هـ بالبصرة، وحفظ القرآن الكريم في صغره، وأحب العلم، وسعى إليه، فأخذ الفقه من شيخ البصرة الصيمري ومن غيره من علماء البصرة، ثم رحل إلى بغداد وأخذ العلم علي يد الإمام العلامة الإسفرائيني، وظل منقطعًا على التحصيل والعلم حتى أصبح من كبار العلماء وسادات الفقهاء في المذهب الشافعي وفي سائر العلوم.

جلس للتدريس في مساجد بغداد، وأقبل على دروسه العلماءُ والفضلاءُ وطلابُ العلم ينهلون من بحر علمه الفياض، وأحبه الكبير والصغير، واشتهر اسمه، وعلا أمره بين علماء عصره حتى تولى منصب قاضي بغداد، فأجاد وأفاد وبرز، حتى أصبح قاضي القضاة وكان محببًا عند الخليفة العباسي القائم بأمر الله، مقربًا وجيهًا عند جلال الدولة ملك بغداد وكان يحضر مجالسه.

وفي عام ٤٢٩هـ كان الماوردي على موعد مع البلاء والاختبار؛ ففي شهر رمضان أراد الخليفة أن يكرم الملك جلال الدولة، فأنعم عليه بلقب شاهنشاه

---

(١) مجلة الأمة القطرية محرم ١٤٠٢هـ، شذرات الذهب (٢/ ٢٨٣)، البداية والنهاية (١٢/ ٤٣).

الأعظم « أي ملك الملوك» وأمر الخطباء بالمساجد أن يدعوا له بهذا اللقب، وعندما قام الخطباء بالدعاء لجلال الدولة بلقب شاهنشاه الأعظم نفر منهم العامة ورموا الخطباء بالطوب وحدثت فتنة وكتب الخليفة إلى العلماء يستفتيهم في ذلك :

- فأجاب أبو عبد الله الصيمري : إن هذه الأسماء يعتبر فيها القصد والنية، وقال القاضي أبو الطيب الطبري : إن إطلاق لقب ملك الملك جائز، ويكون معناه ملك ملوك الأرض، كقولهم : قاضي القضاة وكافي الكفاة.

وانتظر الجميع قول قاضي القضاة وكان من خواص الملك ومن المقربين عنده، فأفتى بالمنع، وأصر عليه رغم صحبته للملك جلال الدولة وكثرة تردده عليه، ووجاهته عنده، وقال : لا يقال ملك الملوك إلا لله، وامتنع عن حضور مجلس جلال الدولة رغم مكانته عنده وبلغ الخبرُ جلالَ الدولة، فأرسل للماوردي يستدعيه لحضور مجلسه، فذهب إليه وهو خائف أن يوقع به مكروهًا، فلما دخل عليه أكرمه وعظمه، وقال له : قد علمت ما قلت، وأنه ما منعك من موافقة الذين جوزوا ذلك مع صحبتك إياي ووجاهتك عندي إلا دينك واتباعك الحق، وإن الحق آثر عندك من كل أحد، ولو حابيت أحداً من الناس لحابيتني، وقد قربك ذلك مني، وزادت محبتك عندي، وقدمتك على نظرائك من العلماء .

وترك الماوردي مؤلفات كثيرة تدل على نبوغه وتفوقه في العلوم والفنون، ومن أشهر مؤلفاته :

١ـ كتاب التفسير .

٢ـ الحاوي الكبير في الفقه الشافعي في عشرين جزءاً .

٣_ آداب القاضي .

٤_ نصيحة الملوك .

٥_ الأحكام السلطانية ، وطبع بمصر .

٦_ قوانين الوزارة وسياسة الملوك ، وطبع بمصر سنة ١٩٢٠م بعنوان «آداب الوزير» .

٧_ الأمثال والأحكام .

٨_ البغية العليا في آداب الدنيا والدين .

٩_ أعلام النبوة .

وكان في كتبه يركز على ثلاثة أمور ؛ هي : السياسة الشرعية ـ التربية ـ الأخلاق ، وكانت له أقوال سديدة وعبارات رشيدة منها :

* زلة العالم كالسفينة تغرق ويغرق معها خلق كثير .

* إن البناء على غير أساس لا ينبني ، والثمر على غير غرس لا يجنى .

* لا يكفي المؤمن القيام بالشعائر الدينية ، بل يجب أن يروض نفسه باستمرار على المشي في الطريق المستقيم ، وهذا يتطلب ثلاثة أمور :

الأول: أن تصرف حب الدنيا عن قلبك .

الثاني: أن تأمن الاغترار بملاهيها .

الثالث: أن تستريح من طلب السعي لها .

* الهوى مختص بالآراء والاعتقادات ، والشهوة مختصة بنيل المستلذات ، والشهوة نتاج الهوى .

* لا ينصلح حال الإنسان إلا بثلاثة أشياء :

الأول: نفس مطيعة إلى رشدها، منتهية عن غيها.

الثاني: ألفة جامعة تجتمع عليها القلوب، تفعل الخير وتدفع المكروه.

الثالث: حالة مادية كافية، تسكن بها نفس الإنسان، ويستقيم بها حاله.

* الدنيا لا تنصلح إلا بستة أمور، هي:

١ ـ دين متبع

٢ ـ سلطان قاهر.

٣ـ عدل شامل.

٤ـ أمن عام.

٥ـ خصب دائم.

٦ـ أمل فسيح.

توفي رحمه الله سنة ٤٥٠ هـ وعمره ٨٦ سنة، قضاها معلمًا، ومؤلفًا، وقاضيًا بالحق، لا يحابي، ولا يجامل.

* * *

أياس[1]
أذكى القضاة

أياس بن معاوية بن مرة بن أياس، قاضي البصرة، وهو تابعيٌّ، ولجده صحبة، وكان يضرب المثل بذكائه، وكان فقيهًا عفيفًا، مشكور السيرة، صالح الأخلاق، قال سفيان بن حسين: ذكرت رجلاً بسوء عند أياس بن معاوية، فنظر في وجهي، وقال: أغزوت الروم قلت: لا، قال: أغزوت فارس؟ قلت: لا، قال: أغزوت السند والهند والترك؟ قلت: لا، قال: أسلم منك الروم والفرس والسند والهند ولم يسلم منك أخوك المسلم؟!

اخْتَلَفَ في شبابه مع شيخ كبير، فذهب إلى قاضي دمشق، فقال القاضي: إنه شيخ كبير، وأنت شاب، فلا تساويه في الكلام، فقال أياس: إن كان كبيراً فالحق أكبر منه، فقال القاضي: اسكت، فقال أياس: ومن يتكلم بحجتي إن سكتُّ؟!

وكان آية في الذكاء، سأله أحد جلسائه: إلى متى يتوالد الناس ويموتون؟ فقال لجلسائه: أجيبوه، فلم يكن عندهم جواب، فقال أياس: حتى تتكامل العدتان، عدة أهل النار، وعدة أهل الجنة.

ولاَّه عمر بن عبد العزيز قضاء البصرة، ففرح العلماء، وجاء الحسن البصري سيد التابعين، والعالم الجليل ابن سيرين مسلمًا عليه فبكى وذكر

---

(١) البداية والنهاية (٩/ ٣٣٤)، وفيات الأعيان (١/ ٢٤٧).

حديث: «القضاة ثلاثة؛ قاضيان في النار، وواحد في الجنة». وكان إذا أشكل عليه شيء بعث إلىٰ محمد بن سيرين يسأله، وجاءه رجل وقال: إني أودعت عند فلانًا مالاً، وجحدني، فقال أياس: اذهب الآن، وائتني غدًا، ثم بعث من فوره إلىٰ ذلك الرجل الجاحد، وقال له: عندي مال أيتام، وأريد أن أحفظه عندك، فقال له: سمعًا وطاعة، فقال أياس: اذهب الآن، وائتني غدًا، وعندما جاء صاحب الحق إلىٰ أياس قال: اذهب إلىٰ الرجل، وقل له أعطني حقي وإلا شكوتك للقاضي، فلما ذهب إليه وقال له ذلك خاف الرجل أن لا يودع القاضي عنده الأموال فأعطاه ماله بالكامل وجاء إلىٰ أياس في الغد فنهره وطرده وقال: أنت خائن.

وذات يوم أقبل عنده الأمير ابن أبي الأسود أمير خراسان ليشهد عنده فقال له أياس: مرحبًا وأهلا بأبي مطرف وأجلسه معه، ثم قال له: ما جاء بك؟ قال لأشهد لفلان قال أياس: ومالك والشهادة إنما يشهد الموالي والتجار والسوقة قال: صدقت، وانصرف من مجلسه راضيًا إلىٰ بلده فقالوا له: إنه خدعك إنما أراد بذلك أن يتخلص من شهادتك لأنه لا يقبلها قال: لو علمت لضربته[١].

وقال له بعض الناس: ليس فيك عيب سوىٰ كثرة الكلام.

فقال: بحق أتكلم أم بباطل؟ قالوا: بل بحق.

فقال: كلما كثر الحق فهو خير.

وقال له رجل: إن فيك خصالا لا تعجبني.

---

(١) أبو حنيفة النعمان للأستاذ عبد الحليم الجندي ص ١٢٢.

فقال : ما هي؟ فقال : تحكم بسرعة ، ولا تجالس كل أحد ، وتلبس الثياب الغليظة .

فقال له أياس : أيهما أكثر الثلاثة أم الاثنان ؟

قال الرجل : بل الثلاثة فقال أياس : ما أسرع جوابك؟ !

فقال الرجل : أو يجهل ذلك أحد؟

فقال أياس : وكذلك ما أحكم به ، وأما عدم مجالستي لكل أحد ، فلأن اجلس مع من يعرف لي قدري أحب إلي من أن أجلس مع من لا يعرف لي قدري وأما الثياب الغلاظ : فأنا ألبس منها ما يقيني لا ما أقيه أنا .

ولما ماتت أمه بكى عليها وقال كان لي بابان إلى الجنة فغلق أحدهم ، وكان أبوه يقول : إن الناس يلدون أبناء وولدت أنا أبا .

وقال أياس : رأيت في المنام كأني وأبي نستبق على فرسين معًا : فلم أسبقه ولم يسبقني ، وعاش أبي ٧٦ سنة وأنا أعيش مثله فلما أتم ٧٦سنة قال : أتدرون أي ليلة هذه ؟ قالو : لا قال : هذه الليلة استكمل فيها عمر أبي ونام فأصبح ميتًا وكان ذلك عام ١٢٢هـ

* * *

يحيى بن أكثم [١]

زواج المتعة حرام

أبو محمد يحيىٰ بن أكثم بن محمد بن قطن من ولد أكثم بن صيفي حكيم العرب، كان عالمًا بالفقه، بصيرًا بالأحكام، جادًا في كل أموره .

أقبل علىٰ العلم بهمة عالية، فسمع من الإمام الرباني عبدالله بن المبارك والحافظ سفيان بن عيينة وغيرهم من كبار العلماء حتىٰ أصبح غزير العلم، كثير الأدب، قائمًا بكل معضلة، تام العقل، سليم العقيدة، أحد أعلام الدنيا، وعرف خبره الكبير والصغير .

رشحه رجلٌ للقضاء، فاستدعاه المأمون، فوجده دميم الخلقة، فاستقل شأنه، فلما شعر يحيىٰ بذلك قال: يا أمير المؤمنين، سلني إن كان القصد علمي لا شكلي، وكان المأمون عالمًا، فسأله، فأجاب وأجاد، فأحبه المأمون، ولم يقدم عليه أحدًا من الناس جميعًا، وقلده قضاء البصرة وتدبير أمور المملكة، فكانت الوزراء لا تعمل شيئًا إلا بعد الرجوع إلىٰ يحيىٰ بن أكثم .

وعندما تولىٰ قضاء البصرة سنة ٢٠٢ هـ كان عمره عشرين سنة، فاستصغره أهل البصرة وقالوا: كم سن القاضي؟ فعلم أنهم قد استصغروه، فقال: أنا أكبر من عتاب بن أسيد الذي ولاَّه النبي ﷺ قضاء مكة، وأنا أكبر من معاذ بن جبل الذي ولاَّه النبي ﷺ قضاء اليمن، وأنا أكبر من كعب بن سوار الذي ولاَّه عمر بن الخطاب قضاء البصرة، فسكتوا .

(١) وفيات الأعيان (٦/ ١٤٨)، سير أعلام النبلاء (١٢/ ٥).

وعاش مكرمًا محببًا معززاً عند الناس وعند الخليفة، يقضي بالحق، لا يخشى لومة لائم مهما كان، فالحق عنده أكبر وأعظم من كل شيء، وذات يوم سافر المأمون إلى الشام، وأثناء السفر أمر مناديًا أن ينادي بتحليل المتعة وقال: متعتان كانتا على عهد رسول الله ﷺ وعهد الصدِّيق ولن أنهى عنهما، فسكت الناس، وهابوا الكلام معه في هذا الشأن، وبلغ الخبرُ القاضي يحيى، وكان معه في السفر، فحزن وعزم على مراجعته، ودخل عليه وجلس عنده، فقال المأمون ليحيى: ما لي أراك متغيراً ؟ فقال: غمٌّ، وهمٌّ يا أمير المؤمنين بما يحدث في الإسلام ؟ فقال الخليفة: وما الذي حدث في الإسلام ؟ فقال يحيى: النداء بتحليل الزنا، فقال الخليفة: ومن حلل الزنا؟ فقال يحيى: أنت، ألم تحلل المتعة وقد حرمها الله عز وجل في كتابه، فقال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝٢ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ۝٤ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝٥ إِلاَّ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ [المؤمنون: ١-٧]

ثم قال للخليفة: أَزَوَاجُ المتعة ملك يمين؟ قال الخليفة: لا، فقال يحيى: أفي زواج المتعة ميراث بين الرجل وزوجته؟ قال الخليفة: لا، فقال القاضي: إن رسول الله ﷺ أمر عليَّ بن أبي طالب بالنداء بتحريم المتعة، فقال المأمون: أمحفوظ هذا الحديث؟ فقال يحيى: نعم، رواه الزهري وجماعةٌ؛ منهم مالك رحمه الله، فرجع المأمون وندم، واستغفر الله، وقال: نادوا بتحريم المتعة، فنادوا بها وعصمهم الله من الزنا، وأثنى عليه العلماء على هذه الوقفة، وقالوا: كان له يوم في الإسلام لم يكن لأحد مثله .

وكانت له عبارات رشيقة سديدة، فقد سأله أحد الناس يومًا وقال: أصلح الله القاضي، كم آكل ؟ قال: فوق الجوع ودون الشبع، فقال: كم أضحك ؟

فقال: حتى يضيء وجهك، ولا يعلو صوتك، قال: كم أبكي؟ قال: لا تمل من البكاء من خشية الله تعالى، قال: كم أخفي من عملي؟ قال: ما استطعت، قال: فكم أُظْهِر؟ قال: مقدار ما يقتدي بك البرُّ والخيِّر، ويؤمن عليك قول الناس.

وبلغ من الذكاء والفطنة والدهاء شيئًا عظيمًا فقد دخل ذات يوم على المأمون فأكرمه وأجلسه بجواره على السرير وكان معه الوزير أحمد ابن خالد الأحول فقال: يا أمير المؤمنين إن القاضي يحيى صديقي وأخي وأثق به في كل الأمور ولكنه تغير عما كان عليه فقال المأمون: يا يحيى إن فساد الملوك بفساد خاصتهم وما يعدلكما عندي أحد، فما هذه الجفوة بينكم فقال يحيى: يا أمير المؤمنين إني أحبه وأقدره أكثر مما قال، ولكنه لما رأى منزلتي منك هذه المنزلة خشي أن أتغير عليه يومًا وأقدح فيه عندك فأحب أن يقول هذا ليأمن جانبي وإني والله لو أساء إلي كل الإساءة ما ذكرته بسوء عندك أبدًا فقال المأمون: أكذلك هو يا أحمد؟

قال: نعم يا أمير المؤمنين، فتبسم المأمون وقال: أستعين عليكما بالله فما رأيت أتم دهاء ولا أعظم فطنة منكما.

***

عافية بن يزيد بن قيس [1]
لماذا لم تشمتني؟

عافية بن يزيد بن قيس ، أحد العلماء العاملين ، ومن قضاة العدل ، جمع بين العدل والعلم والورع والزهد .

كان من أصحاب الإمام أبي حنيفة الذين يجالسونه في مجالس العلم ، حتىٰ برع في فقه أبي حنيفة ، وكان أصحاب أبي حنيفة يختلفون في مسألة ، وكان عافية غائبًا ، قال الإمام أبو حنيفة : لا تكتبوها حتىٰ يحضر عافية ، فإذا وافقهم قال أبو حنيفة ، أثبتوها ، وإن لم يوافقهم قال : لا تثبتوها .

ولاَّه المهدي القضاء علىٰ جانب بغداد الشرقي ، وكان ـ رحمه الله ـ عابدًا ، زاهدًا ، ورعًا ، وكان يتحرىٰ العدل والإصلاح بين الناس ، ولا يتعجل الحكم ، ويرد الخصوم رجاء أن يصطلحوا .

دخل يومًا علىٰ المهدي ـ في وقت الظهيرة ـ ، وقال : يا أمير المؤمنين ، أعفني ، فقال المهدي : ولِمَ أعفيك؟ هل اعترض عليك أحد من الأمراء؟

فقال : لا ، ولكن كان بين اثنين خصومة ، وعُرضت عليَّ للحكم بينهما ، فعمد أحدهما إلىٰ رطب السكر ، وكأنه سمع أني أحبه ، فأهدىٰ إليَّ منه طبقًا لا يصلح إلا لأمير المؤمنين ، فلم أقبله ، ورددته لصاحبه ، فلما أصبحا وجلست للحكم لم يستويا عندي في قلبي ولا في نظري ، بل مال قلبي إلىٰ الذي أهدىٰ

---

(١) طبقات الحنفية (١/ ٢٦٧) ، تاريخ بغداد (١٢/ ٣٠٩) ، النجوم الزاهرة (٢/ ١٠٠) ، المنتظم حتىٰ سنة (٢٥٧هـ) .

إليَّ مع أني لم أقبل منه ما أهداه، فكيف لو قبلت منه؟ فأعفني - عفا الله عنك - فأعفاه.

ثم أعاده الرشيد للقضاء مرة أخرىٰ، فعاد وحكم بالعدل، وكان له حاسدون سعوا للوشاية به عند أمير المؤمنين هارون الرشيد، فأرسل إليه يسأله عما قيل عنه، وهو يجيب، وطال المجلس بينهما، وعطس الخليفة فشمَّته الحاضرون، ولم يشمتْه عافية، فقال له الرشيد: لماذا لم تشمتني مع الناس؟

فقال عافية؛ لأنك لم تحمد الله!!

فقال الرشيد: ارجع لعملك، فوالله ما كنت تفعل ما قيل عنك وأنت لم تسامحني في عطسة لم أحمد الله فيها، ثم ردَّه ردًا جميلاً إلىٰ ولايته، وظل محببًا مكرمًا حتىٰ توفي سنة ١٨٠هـ.

* * *

أبو يوسف[1]
المجتهد الوفي المتعبد السخي

العالم الشهير والإمام الجليل يعقوب بن إبراهيم بن حبيب بن سعد قاضي القضاة أبو يوسف، أشهر وأكبر أصحاب الإمام أبي حنيفة.

ولد سنة ١١٣هـ من أسرة فقيرة، وتوفي والده وهو صغير، فنشأ يتيمًا فقيرًا، وأرسلته أمه للعمل بالسوق وهو طفل صغير، فكان يترك العمل ويذهب يطلب الحديث والفقه في حلقة أبي حنيفة.

وعلمت أمه بالأمر، فكانت تأخذ بيده وتذهب به إلىٰ العمل، فكان يخالفها ويعود إلىٰ درس أبي حنيفة، فلما طال عليها ذلك ذهبت لأبي حنيفة وقالت: إن هذا صبي يتيم، ليس له شيء إلا ما أطعمه من مغزلي، وإنك قد أفسدته عليَّ، فقال أبو حنيفة: دعيه يتعلم العلم وسيأكل الفالوذج بدهن اللوز، فقالت: إنك شيخ قد خرفت.

وانقطع أبو يوسف عن دروس أبي حنيفة، فأرسل إليه، فلما حضر أبو يوسف قال الإمام: ما شغلك عنا؟ فقال أبو يوسف: الانشغال بالمعاش وطاعة أمي، فأعطاه أبو حنيفة صرةً بها مائة دينار، وقال: الزم الحلقة، وإذا نفدت هذه فأعلمني، وعاد أبو يوسف إلىٰ حلقة أبي حنيفة طالبًا للعلم، وظل أبو حنيفة ينفق عليه عشرين سنة.

---

(١) دول الإسلام للذهبي (١/ ١٨٧)، تاريخ بغداد (١٤/ ٢٤٣)، البداية والنهاية (١٠/ ١٨٠)، سير أعلام النبلاء (٨/ ٥٣٥)، العدالة الاجتماعية في الإسلام صفحة (١٨٦) أبو حنيفة النعمان للأستاذ عبد الحليم الجندي.

وتفرغ أبو يوسف للعلم، فسمع من كبار العلماء مثل أبي إسحاق الشيباني، وعطاء بن السائب مع ملازمته لشيخه وأستاذه أبي حنيفة حتىٰ أصبح جبلاً من جبال العلم، فكان يحفظ خمسين أو ستين حديثًا في السماع الواحد، ثم يقوم فيمليها علىٰ الناس، وكان يحب أصحاب الحديث ويميل إليهم .

تولىٰ القضاء سنة ١٦٦هـ حتىٰ سنة ١٨٢هـ ستة عشر عامًا تولىٰ فيها القضاء لثلاثة من الخلفاء: المهدي والهادي والرشيد، وبلغ قمة مجده في عهد الرشيد، فقد كان يؤاكله ويجالسه ويعلمه ويؤمه في الصلاة، وأصبح قاضي القضاة، وهو أول من سمي بذلك، وكانت تعلو منزلته ويرتفع قدره كلما تقدم به العمر، وكان يدخل علىٰ الرشيد راكبًا بغلته، فيستقبله الرشيد بالحب والإعزاز والتكريم.

وذات يوم دخل علىٰ هارون الرشيد ـ وكان يأكل الفالوذج ـ فقال لأبي يوسف: كُلْ من هذا، فإنه لا يصنع لنا في كل وقت، فقال أبو يوسف: وما هذا يا أمير المؤمنين؟ فقال: هذا الفالوذج، فتبسم أبو يوسف، فقال هارون: ما لك تبتسم؟ فقصَّ عليه ما قاله أبو حنيفة، فقال هارون: رحم الله أبا حنيفة، فقد كان ينظر بعين عقله، إن العلم ينفع ويرفع في الدنيا والآخرة.

وكان ـ رحمه الله ـ قاضيًا عادلاً، لا يخشىٰ في الحق كبيرًا أو صغيرًا، جلس ذات يوم للقضاء، فاختصم إليه رجل مع أمير المؤمنين الهادي في بستان، ورأىٰ أبو يوسف أن الحق مع الرجل، ولكن للسلطان شهوده، فقال للهادي: إن الخصم يطلب أن يحلف الهادي أن شهوده صادقون، ولم يحلف الهادي؛ لاعتقاده أن ذلك إهانة له، فرد أبو يوسف البستان إلىٰ الرجل .

وشهد عنده الفضل بن الربيع ـ وزير الخليفة هارون الرشيد ـ فرد أبو يوسف شهادته، فعاتبه الخليفة، وقال: لم رددت شهادته؟ فقال: لأني سمعته يومًا يقول

لك : أنا عبدك ، فإن كان صادقًا فلا شهادة للعبد ، وإن كان كاذبًا فلا شهادة لكاذب ؛ لأنه إن لم يبالِ في مجلسك بالكذب ، فلا يبالي في مجلسي بالكذب .

كان مفخرة بلاط الرشيد وأستاذه ، ومع ذلك كان وفيًّا لأستاذه ومعلمه وشيخه ، وكان يقول : ما في الدنيا أحب إليَّ من مجلس أجلسه مع أبي حنيفة ، ما رأيت أكرم منه ، وعندما قيل له : هل تتمنى أكثر مما أنت فيه؟ قال : أتمنى زهد مسعر بن كدام ، وفقه أبي حنيفة ، فقال الرشيد : ما تمناه أكثر من الخلافة .

وكان يحضر مجلسَ حكمِه العلماءُ على طبقاتهم ، حتى إن أحمد ابن حنبل كان يحضر مجلسه وهو شاب .

وفي عام ١٨٢هـ توفي أبو يوسف أشهر تلاميذ الإمام أبي حنيفة النعمان ، توفي القاضي الأشهر أبو يوسف ، أول من وضع الكتب في أصول الفقه على مذهب أبي حنيفة ، وكان أفقه أهل عصره ، لم يتقدم عليه أحد في زمانه ، وبلغ النهاية في العلم والحكم والرياسة ، وكان ورده في اليوم مائتي ركعة ، وأوصى بمائة ألف دينار لأهل مكة ، ومائة ألف دينار لأهل المدينة ، ومائة ألف دينار لأهل بلده (الكوفة) ومائة ألف دينار لأهل بغداد البلد الذي شهد عزه ، وبلغ فيه مجده ، وقال عند موته : « اللهم إنك تعلم أنني لم أظلم في حكم حكمت فيه بين اثنين من عبادك عمداً ، وقد اجتهدت في الحكم بما وافق كتابك وسنة نبيك محمد ﷺ وما أشكل عليَّ جعلت أبا حنيفة بيني وبينك ، وكان عندي والله ممن يعرف قدرك ويعظم أمرك ولا يخرج عن الحق وهو يعلمه» .

* * *

ما في الشرع يا كنوخ
القاضي ابن عين الدولة[*]

العالم الصالح شرف الدين أبو المكارم محمد بن عبدالله الشافعي، ولد في جمادىٰ الآخرة سنة ٥٥١هـ بالأسكندرية في أسرة عريقة في العلم، كثيرة الفضل، فقد تولىٰ قضاء الأسكندرية ثمانية من أقاربه، وساعده ذلك علىٰ تحصيل العلم والتفوق، وقدم القاهرة سنة ٥٧٣هـ وأخذ العلم من كبار علمائها، وحفظ المهذب وأصبح نائبًا للقاضي، ثم وَلِيَ قضاء القاهرة والوجه البحري سنة ٦١٣هـ، ثم أصبح قاضي قضاة مصر كلها سنة ٦١٧هـ.

كان عارفًا بالأحكام، عالمًا بالقراءات، متدينًا ورعًا، كريم النفس، مهيبًا، قانعًا باليسير، نزيهًا عفيفًا، من بيت عريق في الرياسة، شهد الملك الكامل عنده في قضية، فقال له القاضي: السلطان يأمر ولا يشهد، فأعاد عليه الشهادة، فقال القاضي: السلطان يأمر ولا يشهد، فلما طال النقاش فهم السلطان أن القاضي لا يقبل شهادته، فقال له: أنا أشهد تقبلني أم لا ؟ فقال القاضي: لا، وكيف أقبل شهادتك وعجيبةُ[1] تغني عندك كل ليلة وتنزل ثاني يوم وهي تتمايل علىٰ أيدي الجواري؟ فقال الملك: يا كنوخ[2] فقال القاضي: ما في الشرع يا كنوخ، ثم التفت القاضي لمن حوله وقال: اشهدوا علىٰ أني قد

(*) طبقات الشافعية الكبرىٰ، الوفيات (١/ ٤٤٠)، سير أعلام النبلاء (٢٣/ ١٠٥).

(١) هي مُغَنِّية أولعَ بها الملك وكانت تحضر عنده كل ليلة وتغنيه بالدفوف.

(٢) كلمة شتم بالفارسية.

عزلت نفسي، ونهض وغادر مجلس القضاء، وقامت الدنيا في مصر وغضب العلماء، ونصحوا الملك بإعادته، وقال المقربون من الملك: إن مصلحتك تحتم عليك إعادته حتى لا يقال لأي شيء عزل القاضي نفسه، ويشيع خبر عجيبة، ويصل إلى الخليفة ببغداد، فقام الملك إلى القاضي وترضاه ورَجَاهُ حتى عاد للقضاء.



سوار بن عبد الله [1]
ما بلغني عنه إلا كل خير

العالم الورع والفقيه البارع سوار بن عبد الله ، أحد الأعلام في مذهب الإمام أحمد بن حنبل .

ولاَّه الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور قضاء البصرة ونواحيها ، وجمع له القضاء والصلاة سنة ١٥٦ هـ ، فقام بالأمر أتم القيام ، لا يحابي ولا يجامل ، والناس عنده سواسية ، لا فرق بين أمير وحقير أو صغير و كبير .

وذات يوم كتب أبو جعفر المنصور إلىٰ سوار بن عبد الله قاضي البصرة أن ينظر في أرض اختصم عليها أحد قواد الخليفة مع رجل من تجار البصرة ، وكانت الأرض في يد التاجر ، وكان الخليفة يرىٰ أنها من حق قائده ويجب أن تعود إليه ، ورفض سوار ، فالحق واضح وجليٌّ ، والأرض ملك التاجر بلا شبه ، وبلغ الخليفة رفضُ القاضي ، فكتب إليه المنصور : « والله الذي لا إله إلا هو لتدفعنها إلىٰ القائد » ، فكتب إليه القاضي : « إن البينة قد قامت عندي أنها للتاجر ولست أخرجها من يده إلا ببينة أقوىٰ » .

واستقبل الخليفة رد القاضي بفرح وقال : « ملأتها عدلاً ، وصارت قُضَاتِي تردني إلىٰ الحق ، وذات يوم وُشِيَ به عند الخليفة ، فأرسل إليه يناقشه ، وعطس أبو جعفر ، فشمته الحاضرون ولم يشمتْه القاضي ، فقال الخليفة : لماذا لم تشمتني؟ فقال سوار : لأنك لم تحمد الله ، فقال المنصور : لقد حمدت الله في

---

(١) تاريخ الخلفاء (١/ ٢٦٥) ، تاريخ الطبري (٤/ ٥١٠) ، سير أعلام النبلاء (١٠/ ٥٤٤) .

نفسي، فقال القاضي: وأنا شمتك في نفسي، فتبسم المنصور وقال: ارجع إلىٰ عملك، فإنك إذ لم تحابني فلن تحابي غيري، وكان يسعىٰ لقضاء حوائج الناس لدىٰ الأمراء والحكام بطريقة تدل علىٰ سلامة العقيدة وتمكنه من اللغة، فقد كان يدخل علىٰ الأمير ويقول: أيها الأمير، إني جئت في حاجة رفعتها إلىٰ الله عز وجل قبل أن أرفعها إليك، فإن قضيتها حمدنا الله وشكرناك، وإن لم تقضها حمدنا الله وعذرناك، فتقضىٰ له جميع طلباته .

توفي - رحمه الله - سنة ٢٤٥هـ، وقد عمي في آخر عمره، وقال عنه إمام أهل السنة والجماعة أحمد بن حنبل: ما بلغني عنه إلا كل خير .

* * *

ابن عطاء الله الحنفي [1]
أملاك المسلمين لا تحل للسلطان

قاضي القضاة شمس الدين أبو محمد عبد الله بن محمد بن عطاء ولد سنة ٥٩٥ هـ، وسمع الحديث والفقه حتى أصبح إمامًا عالمًا، كبير القدر، غزير العلم، ودرَّس وأفتى بدمشق، وسمع من كبار علمائها وسمع منه القاضي شمس الدين الحريري.

باشر نيابة القضاء عن قاضي القضاة أحمد بن سَنِيِّ الدولة الشافعي، ثم اشتغل بالقضاء على المذهب الحنفي، وكان له موقف محمود، ويوم مشهود مع الملك الظاهر بيبرس سلطان مصر والشام، ففي سنة ٦٦٠هـ انتصر الظاهر بيبرس على الصليبيين في معارك كثيرة، واسترد منهم ومن التتار أراضي المسلمين، وعاد المسلمون إلى أراضيهم وبساتينهم، يزرعونها وينعمون بخيراتها، وقد أفتاه بعض الفقهاء الحنفية بجواز الاستيلاء على هذه الأرض وقالوا: إن الكفرة إذا أخذوا شيئًا من أموال المسلمين ملكوها، فإذا استرجعت لم ترد إلى أصحابها.

وهذه المسألة مشهورة، وللعلماء فيها قولان؛ أصحهما قول الجمهور: إنه يجب ردها إلى أصحابها، والقول الآخر قول الأحناف بأنها: لا ترد إلى أصحابها.

وعقد السلطان مجلسًا اجتمع فيه القضاة والفقهاء والعلماء من سائر

---

(١) البداية والنهاية (١٣/ ٢٦٨)، طبقات الحنفية (١/ ٢٨٦).

المذاهب، وطلب السلطان من القاضي ابن عطاء الله أن يفتي بمذهبه(الأحناف) فقال القاضي : هذه أملاك بيد أصحابها، ولا يحل لمسلم أن يتعرض لها، ثم نهض من المجلس وذهب، وغضب السلطان من قوله غضبًا شديداً، ثم سكن غضبه، فكان يثني عليه بعد ذلك ويمدحه .

توفي - رحمه الله - سنة ٦٧٣هـ، وله ثمانية وسبعون سنة، أمضاها في نشر العدل والحكم بما يرضي الله عز و جل، لم تأخذه في الحق لومة لائم، ولم يرهبه قوة السلطان، ولم يتقيد بنصوص مذهبه، بل كان يحكم بالحق وللحق، عارض رغبة السلطان في زمن حرب وجهاد، فالسلطان يحتاج إلىٰ الأموال للنفقة علىٰ الجيوش واستكمال الجهاد ضد التتار تارة، وضد الصليبيين تارة أخرىٰ، كل ذلك لم يشغل فكر القاضي عند حكمه، بل كان عقله وفكره مشغولاً بالحق فعاش سعيداً، ومات حميداً(*) .

* * *

(*) طبقات الحنفية (١/ ٢٨٦).

أحمد بن إسحاق بن البهلول[1]
خازن المسلمين

أحمد بن إسحاق بن البهلول القاضي الحنفي، العدل الثقة الرضي، كان فقيهًا، عظيم القدر، واسع الأدب، تام المروءة.

ولد بالأنبار في المحرم سنة ٢١٣هـ، من أسرة عريقة في العلم والفقه؛ فوالده المحدث الحافظ الكبير إسحاق بن البهلول، لم يبخل عليه بعلم، وشجعه على طلب العلم والتفوق حتى أصبح بارعًا في علوم شتى، عالمًا بالنحو واللغة، خطيبًا جيد الخطابة، ثقة ثبتًا في الحديث، جيد الضبط لما يحدِّث، وقد روى عنه الحافظ الدارقطني.

تولى القضاء في عهد المعتضد وعهد المكتفي، ثم تولى قضاء بغداد سنة ٢٩٦هـ، وظل به حتى سنة ٣١٦هـ، فكان عادلاً، لا يخشى في الحق غير الله عز و جل، وقد أوقفت السيدة أم الخليفة المقتدر بالله جزءاً من أموالها وقفًا لله، وأودعت الوقف عند القاضي، ثم أرادت أن تتراجع في ذلك الوقف، فطلبت من القاضي الوقف لتنظر فيه، حتى إذا وصلها مزقته، وفهم القاضي مقصدها، ورفض، فأرسلت تستدعيه، فلما حضر عندها كلمها من وراء حجاب وقال: لا يمكن أن أعطيك الوقف؛ لأني خازن للمسلمين، فإما أن تعزلوني من القضاء وتولوا غيري، أو تتركوا هذا الذي تريدون أن تفعلوه، فلا سبيل إليه وأنا قاض، فشكته إلى ولدها الخليفة المقتدر، واستجاب الخليفة

(١) البداية والنهاية (١٧/ ١٦٥)، سير أعلام النبلاء (١٤/ ٤٩٧).

لأمه، وطلب من القاضي إعطاءها الوقف، فرفض، فعاد الخليفة إلىٰ أمه، فقال لها: إن هذا الرجل ممن يرغب فيه، ولا يزهد فيه، ولا سبيل إلىٰ عزله ولا التلاعب به، فرضيت عنه وأرسلت تشكره علىٰ ما صنع، فقال: من قدم أمر الله علىٰ أمر العباد كفاه الله شرهم، ورزقه خيرهم.

وفي عام ٣١٨هـ توفي القاضي الأمين، والناصح الشفيق أحمد ابن بهلول عن عمر يناهز ثمانين سنة، قضىٰ منهم عشرين سنة في القضاء.

* * *

محمد بن بشر (١)
للقاضي أن يرد شهادة الملك أو يقبلها

محمد بن بشر قاضي قضاة الأندلس في عصرها الذهبي، عصر أمير المؤمنين الحكم بن هشام الذي كان يشبه بأبي جعفر المنصور في شدة الملك، وقهر الأعداء، وكان عمُّ الخليفة الحكم بن هشام له دَيْنٌ على أحد العامة، واختلفا وتنازعا، وجلسا للحكم عند القاضي، فإذا بالقاضي يقول لعمِّ أمير المؤمنين: قف بحذاء خصمك، ولا تتكلم حتى أسألك، فلما سمع دعواه قال للمدعى عليه: ما تقول؟ فقال الرجل: ليس له عندي شيء، فقال القاضي لعمِّ أمير المؤمنين: هات بينتك، فقال: ألا يكفيك قولي؟ قال القاضي: لو كفاني ما سألتك البينة، فقال: أمهلني، فأمهله.

خرج عم الخليفة من عند القاضي وتوجه إلى ابن أخيه أمير المؤمنين فقال له: ألست تعرف أن لي على فلان كذا؟ قال: نعم، قال: أتشهد لي؟ قال: نعم، ودعا الملك بشاهدين، وكتب شهادته أمامهما وأشهدهما عليها، وأعطاها لعمه.

فلما جاء يوم المحاكمة قال له القاضي: بينتك، فأبرز له شهادة الملك، فقال القاضي: أنا لا أقبل شهادته، وغضب العم وأسرع إلى ابن أخيه ملك الأندلس وقال له يحرضه: أنت ملك البلاد، والقاضي يرد شهادتك!! ماذا بقي لك من الكرامة والسلطان؟! اعزله ليكون عبرة لغيره، فقال الملك: إن القاضي رجل

(١) جـ ٢ رجال من التاريخ الشيخ علي طنطاوي (١/ ٢١٩).

صالح، لا يخشىٰ إلا الله، وقد عمل ما عليه، فأحسن الله جزاءه، فقال: اعزله، فقال الملك: أعوذ بالله أن أخون المسلمين في عزل مثل هذا الرجل، وقد عملت ما عليَّ، وشهدت لك، وللقاضي أن يقبل الشهادة أو يردها.

ولما سئل القاضي: لماذا رددت شهادة أمير المؤمنين؟ قال: والله ما رددتها لنقص في عدالته، ولكن لابد من سؤال المدعي والمدعىٰ عليه فيما يقوله الشاهد، فلو قبلتها فمن كان يجرؤ علىٰ الطعن فيها؟!

وكان لأحد العامة دعوىٰ علىٰ ابن فطيس وزير الحكم بن هشام وكان لابن فطيس سطوة ونفوذ، فلما سأل القاضي المدعي بينته جاءه بشهود، فسمع شهادتهم في غيبة الوزير ولم يخبره بهم، ولم يعرفه بهم، وحكم علىٰ الوزير ابن فطيس فرفع الوزير شكوىٰ إلىٰ الملك، وكان القاضي حاضراً، فسأله، فقال القاضي: ليس ابن فطيس ممن يعرف بمن يشهد عليه؛ لأنه إن لم يجد سبيلاً إلىٰ تجريح شهادتهم لم يتحرج من إستعمال سلطانه في أذاهم في أنفسهم وأموالهم والانتقام منهم؛ فيدع الناس الشهادة وتضيع حقوق الناس.

* * *

أبو بكر الفريابي [١]
طاف البلاد في طلب العلم

القاضي العالم جعفر بن محمد بن الحسين بن المستفاض أبو بكر الفريابي قاضي الدينور وما وراء النهر .

ولد سنة ٢٠٧هـ، وحفظ القرآن الكريم في صغره، وأحب تحصيل العلم، وطاف البلاد شرقًا وغربًا في طلب العلم، ولقي الأعلام بخراسان وما وراء النهر، وسمع الكثير من المشايخ الكبار مثل قتيبة وعلي بن المديني، وروى عنه أبو الحسين بن المناوي وأبو بكر الشافعي وخلق كثير، وأصبح حجة في العلم، وعلمًا من أعلامه، فقيهًا، حافظًا، ثقة .

عندما دخل بغداد استقبله أهلها بالأفراح والزينة، وازدحم الناس في الشوارع لرؤيته وسماعه، وأحبه الناس وأقبل عليه طلاب العلم ينهلون من بحر علومه، وكان عدد من يحضر مجلسه نحواً من ثلاثين ألفًا، والمستملون عليه فوق الثلاثمائة، وأصحاب المحابر فوق عشرة آلاف .

وكان قد حفر لنفسه قبراً قبل وفاته بخمس سنين، وكان يأتيه ويقف عنده ثم لم يدفن فيه، بل دفن بمكان آخر سنة ٣٠١ هـ وهو ابن أربع وتسعين سنة .

* * *

(*) البداية والنهاية (١١/ ١٢١)، المنتظم من سنة (٢٥٧هـ) (٦/ ١٢٤) .

عبد الله بن الحسن[1]
إذًا أرجع وأنا صاغر

عبدالله بن الحسن بن الحصين بن أبي الحسن البصري قاضي البصرة، كان ثقة فقيهًا ورعًا عالمًا، سئل عن مسألة فأخطأ في الجواب، فقيل له: الحكم فيها كذا وكذا، فأطرق رأسه ثم قال: إذًا أرجع وأنا صاغر، لأن أكون صغيراً في الحق أحب إليَّ من أن أكون رأسًا في الباطل، توفي رحمه الله سنة ١٦٨هـ.

* * *

(١) البداية والنهاية (١٠/ ١٥١).

قاضي القضاة الشهرزوري (١)
مستشار الملك

محيي الدين أبو حامد محمد بن محمد بن عبد الله بن القاسم الشهرزوري الشافعي، أحد السادة العلماء والأئمة الفقهاء .

ولد سنة ٤٩١ هـ ، وتفقه ببغداد على يد أسعد المهيني، وسمع الحديث من نور الهدى الزينبي، ومن جده لأمه الشيخ علي طوق، وولي قضاء بلده أيام الملك زنكي ، ثم وفد على الملك المجاهد نور الدين محمود، فأكرمه وبجَّله وقرَّبه إليه وصار قاضيه ووزيره ومشيره في كل أموره، ثم ولاَّه قضاء دمشق، وفوض إليه الإشراف على ضرب النقود وعمارة الأسوار والنظر في المصالح العامة، وأصبح من أقرب الناس إلى قلب الملك المجاهد نور الدين محمود، ومعظمًا عند ملوك وأمراء الشام .

تحاكم عنده رجل مع الملك الشهير نور الدين محمود، فأرسل القاضي إلى الملك وأجلسه مع خصمه، وساوى بينهم في المجلس، ولم يثبت للرجل حق عند الملك نور الدين محمود، فحكم القاضي بعدم أحقية الرجل فيما يدعيه، وعند ذلك تنازل نور الدين للرجل فيما ينازعه فيه .

وعندما دخل صلاح الدين الأيوبي دمشق كان القاضي الشهرزوري نعم المعين له، وقال له: طب نفسًا، فالأمر أمرك، والبلد بلدك، وظلَّ مكرمًا معززًا محبوبًا عند الخاصة والعامة حتى توفي سنة ٥٧٢ هـ ، رحمه الله وأحسن مثواه .

---

(١) سير أعلام النبلاء (٢١/ ٥٧).

أبو العباس البرتي[1]
القاضي الأمين

أحمد بن محمد بن عيسى بن الأزهر ، أبو العباس البرتي الفقيه الحافظ صاحب المسند ، كان ثقة عدلاً ، ورعًا ، قويًا في الحق .

روى عن مسلم بن إبراهيم وأبي نعيم وأبي الوليد وكثير من العلماء ، وأخذ الفقه من أبي سليمان الجوزجاني ، وكان من خيار العلماء .

تولى قضاء واسط أيام الخليفة المعتز بالله ، فكانت أحكامه سديدة رشيدة عادلة ، وظل كذلك حتى تولى المعتز بالله الخلافة ، فطلب منه ومن القاضي إسماعيل أن يعطياه ما بأيديهما من أموال اليتامى الموقوفة ، فاستجاب له القاضي إسماعيل ، وطلب القاضي أبو العباس مهلة من الوقت قدرها ثلاثة أيام يحضر فيها ما تحت يديه من الأموال ، فأجابه الخليفة إلى طلبه وأمهله ثلاثة أيام .

وخرج القاضي من عند الخليفة ، وأسرع بتوزيع المال على اليتامى ، فلما انقضت المهلة أرسل إليه الخليفة يطالبه بالمال ، فقال : ليس عندي منه شيء ، أعطيته لأهله ، فغضب عليه السلطان وعزله عن القضاء ولزم بيته حتى توفي في ذي الحجة سنة ٢٨٠ هـ .

وقد رآه بعض أصحابه في المنام ، وقد دخل على رسول الله ﷺ فصافحه ، وقبله بين عينيه ، وقال : « مرحبًا بمن عمل بسنتي وأثري » .

رحم الله هذا القاضي النزيه الشريف ، فقد كانت أموال اليتامى أمانة عنده ، فحافظ عليها ، وأغضب السلطان ، وأرضى الرحيم الرحمن .

(١) المنتظم من سنة (٢٥٧هـ) سير أعلام النبلاء (١٣/ ٤٠٧).

ابن بنت الأعز[١]

قاضي مصر

عبد الوهاب بن خلف بن بدر العلامي، قاضي القضاة تاج الدين الشهير بابن بنت الأعز، كان ذا ذهن ثاقب، وتفكير صائب، وجد وسعي، وحزم وعزم، ولد سنة ٦٠٤هـ.

أخذ العلم على كبار العلماء، وتتلمذ على يد الشيخ العالم الجليل عز الدين ابن عبد السلام، تولى قضاء مصر بتعيين من سلطان العلماء عز الدين بن عبد السلام، وجمع له نظر الدواوين، وتدريس المذهب الشافعي، ومشيخة الشيوخ والخطابة، وهي مناصب لم تجمع لأحد قبله، فبرع وسطع، وحكم وعدل.

وكان رحمه الله إمامًا فاضلاً متبحراً، وافر الحرمة، تولى القضاء أيام السلطان الظاهر بيبرس، وكان يتثبت في الأحكام، ولا يراعي أحداً إلا في الحق، ولا يداهن، ولا يقبل شهادة مريب، قوي النفس، نزيهًا صُلبًا في الدين.

شهد عنده أحد الأمراء في ثبوت ملكية، فردَّ شهادته ولم يقبلها، فذهب وشكاه للسلطان بيبرس، فسأله السلطان عن ذلك، فقال: ما شهد أحد عندي حتى أثبته، فقال الأمير: إذا لم تسمع شهادتي، فمن تريد؟ وقال السلطان: لِمَ لَمْ تسمع قوله؟ فقال القاضي: لا حاجة لي بشهادته، وأصر على رد شهادة

(١) طبقات الشافعية الكبرى (٢/ ١٣٨)، البداية والنهاية (١٣/ ٢٤٩) العدالة الاجتماعية في الإسلام صفحة (٣٢٤ حتى ٣٢٦).

الأمير، فقد كان يرتاب فيه. وحين جلس السلطان بيبرس بدار العدل سنة ٦٦٣هـ قدم أحد الأمراء شكوىٰ ضد قاضي القضاة تاج الدين ابن بنت الأعز وقال في شكواه: سألت القاضي أن يسلمني ربع الوقف الذي تحت يديه لأنفقه علىٰ فقراء المدينة، فلم يفعل، فسأل السلطان القاضي عما قاله الأمير، فقال: نعم، فقال السلطان: أنا أمرته بذلك، فكيف رددت أمري؟! فقال القاضي: يا مولاي، هذا المال أمانة عندي، ولا أسلمه إلا من أعرف أنه موثوق بدينه وأمانته، فإن كان السلطان يتسلمه مني أحضرته إليه، فقال السلطان: تنزعه من عنقك وتجعله في عنقي؟! قال القاضي: نعم، فقال السلطان: لا تعطيه إلا لمن تختاره وتثق في دينه وأمانته.

وكان السلطان يعظمه، والوزير ابن حنا يخاف منه ويسعىٰ في الوشاية به عند السلطان، فلم يقدر، وكان يشتهي أن يزوره القاضي في بيته ولو عائدًا، ومرض ذات يوم فجاء القاضي لزيارته، فقام الوزير واستقبله في وسط الدار، فقال القاضي: إنما جئنا لعيادتك، فإذا أنت سويٌّ صحيح، سلام عليكم، فرجع ولم يجلس عنده.

توفي رحمه الله سنة ٦٦٥هـ، وله إحدىٰ وستون سنة عاشها مكرمًا معززًا، قوَّالاً بالحق، حاكمًا بالعدل.

* * *

أبو عبيد الله بن حربويه[1]

الخجول الورع

علي بن الحسين بن حرب بن عيسى أبو عبيد الله بن حربويه، القاضي العلامة، المحدث الثَّبْتُ، قاضي قضاة مصر، وأحد أركان مذهب الشافعي، كان من فحول العلماء، ولم يكن يتعصب لمذهب معين.

تتلمذ على يد العالم الشهير أبي ثور، وداود، كان عالمًا بالاختلاف والمعاني والقياس، عارفًا بعلم القرآن والحديث، فصيحًا عفيفًا، قوَّالاً بالحق، سمحًا وقوراً، رزينًا، تام الورع، واسع العلم، وقد أثنى عليه الحافظ الدارقطني، وذكر فضله وجلالته، وحدث عنه النسائي صاحب السنن الشهيرة.

تولى قضاء واسط أولاً، ثم وَلِيَ قضاء مصر، فقدمها سنة ٢٩٣هـ ولم يكن شكله مقبولاً، وكان من يراه لا يهتم بأمره حتى يسمع كلامه؛ فيقع في قلبه أعظم موقع.

قال ابن الحداد: عندما قدم أبو عبيد مصر رأيته في الطريق في جملة الناس، فما أعجبني منظره ولا زيه، ثم سألت عليه منصور بن إسماعيل، فقال: هو رجل عالمٌ بالقرآن والسنة والفقه والحديث والاختلاف والمناظرات، ضليعٌ في اللغة والنحو، وأيام الناس عاقل ورع، متمكن زاهد، قلت: كأنه يحيى بن أكثم، ثم دخلت عليه بعد ذلك فوجدته أعلم وأكبر مما قيل فيه، صاحب وقار وهيبة وحشمة.

---

[1] سير أعلام النبلاء (١٤/ ٥٣٦)، طبقات الشافعية (٣/ ٤٤٦)

وظل بمصر ثمانية عشر عامًا، وكان أمير مصر «أبو منصور تكين» يذهب إليه ولا يدعه يقوم له، وإذا أقبل القاضي إلىٰ مجلس الأمير قام الأمير ومشىٰ له وتلقاه مرحبًا.

وكان - رحمه الله - ورعًا خجولاً، لم يره أحد يأكل أو يشرب أو يغسل ذراعه، وإنما يفعل ذلك في خلوة منفردًا بنفسه، ولم يره أحد يتمخط أو يبصق أو يحك جسمه أو يمسح وجهه.

خرج ذات يوم لمصلحة، وفي الطريق اشتد عليه البول، فتوجه إلىٰ بستان، واستنجىٰ وتوضأ بمائه، ثم انصرف، وبعد عودته سأل عن صاحب البستان، فقيل له: هو لفلانة، فأرسل إليها يستأذنها في الحضور إليها، فقالت المرأة: لا يكلف نفسه مشقة الحضور، أنا أحضر عنده، فرفض وذهب إليها، وقال: لقد نزلت في بستانك، وتوضأت من مائه، فخذي ثمن ذلك، فبكت المرأة وقالت: أنت في حلٍّ، بل البستان بكامله هدية لك، فرفض القاضي وشكرها وانصرف.

وذات يوم حضر إلىٰ مصر جيش كبير بقيادة مؤنس الخادم - أكبر أمراء الخليفة العباسي المقتدر بالله - ومكث في مصر مدة، ثم مرض، فأرسل إلىٰ القاضي يطلب منه شهودًا ليشهدوا أنه أوصىٰ بقرىً كثيرة ينفق ريعها في سبيل الخير والبر، وأعتق ستمائة مملوك، وتبرع بأموال كثيرة، فقال القاضي: لا، حتىٰ يثبت عندي أن مؤنسًا حرٌّ - هذا ومؤنس أكبر الأمراء - وصمم القاضي وقال: حتىٰ يأتيني كتاب من الخليفة بأنه أعتقه.

طلب إعفاءه من القضاء سنة ٣١١هـ حتىٰ يتفرغ للعلم، ورجع إلىٰ بغداد، وظل يحدِّث بها إلىٰ أن توفي سنة ٣١٢هـ.

القاضي أبو بكر الشاشي [1]
ظل يدرس خمساً وخمسين سنة

محمد بن مظفر بن بكران الحموي، القاضي الشهير أبو بكر الشاشي من علماء الطبقة الخامسة في المذهب الشافعي.

ولد سنة ٤٠٠هـ، وأقبل على العلم بهمة عالية، ونشاط وحب، وحج وهو صغير - سبع عشرة سنة - ثم ذهب إلى بغداد سنة (٤٢٠هـ) وهو شابٌ فسمع من عثمان بن دوست العلاف وأبي القاسم بن بشران فتفقه على العالم أبي الطيب الطبري، وسمع الحديث من كبار علماء بغداد، ولازم ابن الدمغاني حتى أصبح بحراً من بحور العلم وعلامة وحجة في المذهب الشافعي حتى قيل في حقه: لو رفع مذهب الشافعي لأمكنه أن يمليه من حفظه، وألف كتاب «العمدة» في الفقه الشافعي، وظل في مسجده خمسًا وخمسين سنة يدرس لطلبة العلم، ويفقههم، وينشر الخير بين الناس.

. عرض عليه القضاء سنة (٤٧٨هـ) فامتنع فألحوا عليه فاشترط عليهم أن لا يأخذ على القضاء أجراً ولا يقبل من أحد شفاعة وأن لا يغير ملبسه فأجابوه إلى ذلك.

وكان يقول: ما دخلت في القضاء حتى وجب عليَّ تولي القضاء بعد الدمغاني.

(١) طبقات الشافعية (٢/ ٢٧١)، سير أعلام النبلاء (١٩/ ٨٥) البداية والنهاية (١٢/ ١٥١).

فكان من أنزه الناس، وأعفهم، يتحرىٰ الصدق في كل أفعاله، ذا همة عالية، وإقدام وهيبة، لم يقبل من سلطانٍ عطيةً، ولا من صاحبٍ هديةً، ولم يغير مجلسه ومأكله، ولم يأخذ علىٰ القضاء أجرًا، ولم يحابِ مخلوقًا.

عادلاً في حكمه يسوي بين الناس فانقلب عليه الأمراء والكبراء فلم يهتز ولم يداهن، ثم غضب عليه أمير المؤمنين المقتدي بالله فمنع الشهود من حضور مجلسه مدة حتىٰ يجبره علىٰ الاعتزال، فلم يرتجف، أو ينهار، أو يتخاذل، بل ظل صامدًا كالجبل وكان يقول: ما أنعزل حتىٰ يتحقق عليَّ فسق ثم إن أمير المؤمنين عاد إلىٰ رشده فأكرمه وقدره.

شهد عنده رجل من كبار الأمراء يقال له المشطب بن أحمد، فلم يقبل شهادته؛ لأنه يلبس الحرير والذهب، فغضب الأمير وقال: لماذا لا تقبل شهادتي؟

فقال القاضي: لأنك تلبس الحرير، والذهب.

. فقال الأمير يتهدده ويتوعده: أترد شهادتي لأني ألبس الحرير والذهب؟

- فقال له: - والملك و الوزير يلبسان الحرير والذهب!

فقال القاضي: والله لو شهدا عندي في باقة بقلة[1] ما قبلت شهادتهما ولرددتها - قال ذلك وهو يعلم أنه يتعرض لغضب السلطان والفصل والحرمان أو العزل من القضاء - ولكنه لم يخشَ إلا الله فقد كان رحمه الله زاهدًا ورعًا سديد الأحكام فسلمه الله من الشرور والآثام.

وشهد عنده مرة رجلٌ من أهل مذهبه، فلم يقبل شهادته، فقال: لأي شيء ترد شهادتي وهي مقبولة عند كل حاكم؟!

---

(١) حزمة فجل.

فقال القاضي : لا أقبل لك شهادة ، فأنا رأيتك تغتسل في الحمام غير مستور العورة، فلا أقبلك.

وكان نزهًا ورعًا على طريقة السلف الصالح يسعى لرضا الله عز وجل في كل أحواله ويتحرى الحلال والبعد عن الشبهات وكان له منزل يؤجره كل شهر بدينار ونصف وكان ينفق على نفسه من هذا الإيجار ، فلما تولى القضاء جاء أحد الناس وعرض عليه إيجار المنزل بأربعة دنانير وهو مبلغ كبير ، ولكن القاضي الورع رفض وقال : لا أغير ساكني وقد ارتبت بك ، هل كانت الزيادة قبل أن أتولى القضاء؟ فقد ظن رحمه الله أن ذلك فيه شبهة استغلال للمنصب أو تربح من وراء منصبه الجديد فتورع عن أخذ الزيادة ورفضها وهو أحوج ما يكون إليها .

توفي رحمه الله سنة (٤٨٨) هـ وقد قارب التسعين سنة قضاها في محراب العلم عالمًا وفي محراب القضاء عادلاً .

❊ ❊ ❊

القاضي الفاضل ابن القاضي الأشرف[1] يختم القرآن كل يوم ختمة

الإمام العلامة شيخ الفصحاء والبلغاء أبو علي عبد الرحيم بن القاضي الأشرف.

ولد سنة ٥٠٢هـ بعسقلان، ونشأ ببيان، وتوفي بالقاهرة سنة ٥٩٦ هـ، كان أبوه قاضيًا شهيراً بعسقلان، أحبه الناس وسموه القاضي الأشرف.

في هذه البيئة الصالحة ولد القاضي الفاضل وتولى أبوه تعليمه، ثم أرسله إلى الديار المصرية لتلقي العلم عن شيوخها وعلمائها، فأقبل على العلم بهمة عالية، وعزيمة صادقة حتى ساد أهل البلاد، ولم يكن له في زمانه نظير، اقتنى من الكتب نحواً من مائة ألف كتاب، وكان ـ رحمه الله ـ رحيم القلب، طاهر السريرة، كثير الأموال، كثير الصدقات والصيام والصلاة، وكان يواظب كل يوم وليلة على ختمة كاملة مع ما يزيد عليها من نافلة.

وعندما استقر الأمر لصلاح الدين بمصر أحبَّ القاضي الفاضل، وقربه، وجعله كاتبه وجليسه وأنيسه، وأصبح أعز عليه من أهله وولده، وأصبح وزيره ومستشاره الأمين، وتعاونا على الجهاد ضد الفرنج، هذا بحسامه وسنانه، وهذا بقلمه ولسانه وبيانه، وكان يتولى رعاية أبناء صلاح الدين أثناء انشغاله بالجهاد في الشام.

---

(١) البداية والنهاية (١٣/ ٢٤)، سير أعلام النبلاء (٢١/ ٣٣٨).

وفي سنة ٥٨٤هـ خرج على السلطان صلاح الدين للجهاد بالشام، وكتب إلىٰ ملك اليمن يستدعيه للمشاركة في الجهاد ضد الفرنج، ثم طلب منه صلاح الدين العودة إلىٰ مصر لتدبير الأمور بها، فعاد إلىٰ مصر، وكانت هذه آخر مرة يرىٰ فيها صلاح الدين، فقد ظل صلاح الدين بالشام يجاهد الفرنج حتىٰ توفي، وظل القاضي بمصر إحدىٰ عشرة سنة يدبر الأمور ويرسل لصلاح الدين ما يحتاج إليه من الأموال والسلاح والمقاتلين، ويشرف علىٰ الأسطول، ويكاتب الأمراء والملوك؛ يحضهم علىٰ الجهاد في سبيل الله، ويكاتب صلاح الدين بالشام يقوي عزيمته، ويشرح له أسباب النصر، ومنها كتاب قال فيه:

«إنما أوتينا من قبل أنفسنا، ولو صدقنا الله لعجل الله لنا عواقب صدقنا، ولو أطعناه لما عاقبنا بعدونا، ولوفعلنا من أمره ما نقدر عليه لفعل لنا ما لا نقدر عليه إلا به، فلا يختصم أحد إلا نفسه وعمله، ولا يرجو إلا ربه، ولا يغتر بكثرة الأعوان، فكل هذه مشاغل عن الله وليس النصر بها، إنما النصر من عند الله، ونستغفر الله من ذنوبنا، فلولا أنها تسد طريق دعائنا لكان جواب دعائنا قد نزل، ولكن في الطريق عائق».

ومنها كتاب يذكر فيه: إن سبب هذا التطويل في الحصار كثرة الذنوب بين الناس، وأن الله لا يُنَالُ ما عنده إلا بطاعته، ولا يفرج الشدائد إلا بالرجوع إليه وامتثال أوامره، فكيف لا يطول الحصار؟!!

وفي عام سنة ٥٩٦هـ توفي الرجل الفاضل والقاضي الفاضل وله من العمر أربع وتسعون سنة، قضاها داعيًا إلىٰ الله وقاضيًا بالحق، ومستشارًا أمينًا للملك المجاهد صلاح الدين، وترك أموالاً كثيرة أوقفها علىٰ تخليص الأسارىٰ المسلمين من يدي الفرنج.

* * *

أبو حسان الزيادي (١)
المسلم أخو المسلم

الحسن بن عثمان بن حماد قاضي بغداد الشرقية، ولد سنة (١٦٠هـ) و أخذ العلم عن كبار العلماء، وسمع من الوليد بن مسلم، ووكيع بن الجراح، والواقدي وغيرهم.

كان من العلماء الأفاضل، من أهل المعرفة والثقة والأمانة، وَلِيَ القضاء في بغداد الشرقية في خلافة المتوكل، وكان صالحًا كريمًا، له معرفة بأيام الناس.

طلب منه أحد أصحابه أن يقرضه مائة دينار؛ لحاجته إليها، ولم يكن عند القاضي غيرها، فآثر صاحبه على نفسه وأعطاه المائة دينار، فأخذها وانصرف، وأثناء سيره قابله أحد أصحابه وطلب منه أن يقرضه شيئًا من المال، وشكا له سوء حالته، فأعطاه المائة دينار التي اقترضها، وكان ذلك الرجل صديقًا للقاضي أبي حسان الزيادي أيضًا، فكتب أبو حسان إلى ذلك الرجل الأخير الذي وصلت إليه المائة دينار يستقرض منه شيئًا من المال وهو لا يشعر بما حدث، فآثره على نفسه، وأرسل إليه المائة دينار بصُرَّتِها، فلما رأى أبو حسان كيس النقود تعجب وركب إلى صاحبه يسأله عن ذلك، فذكر له أن فلانًا أرسلها إليه، فاجتمع الثلاثة واقتسموا المال بينهم، رحمهم الله وجزاهم عن مروءتهم خيراً.

وقد بارك الله في عمره حتى توفي رحمه الله سنة (٢٤٢هـ) وهو ابن (٨٢) سنة بعد عمر مديد وعمل سعيد.

---

(١) البداية والنهاية (١٠/ ٣٤٤)، سير أعلام النبلاء (١١/ ٤٩٦).

شريح[1]
أقضى العرب

شريح بن الحارث بن قيس بن الجهم، ينتهي نسبه إلى قبيلة كندة ولهذا عرف بشريح الكندي.

ولد عام ٤٣ قبل الهجرة النبوية، وعاشت أسرته في اليمن، ثم انتقل معها إلى المدينة المنورة، وقد جاوز الخمسين من عمره، وكان رسول الله ﷺ قد توفي.

اتصف بالذكاء الشديد والتواضع، لم يمنعه علمه وفضله وتولية القضاء من مخالطة الناس والسؤال عن أخبارهم، وكان يقبل الهدية ويثيب عليها بأفضل منها، وكان مزَّاحًا مع أصحابه، دخل عليه عدي بن أرطاة، فقال له: أين أنت؟ فقال شريح: بينك وبين الحائط.

تولى قضاء الكوفة ستين سنة متتالية، وذلك في زمن الخلفاء الراشدين: عمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم، وفي زمن الخلفاء الأمويين: معاوية بن أبي سفيان، وعبد الملك بن مروان وغيرهم، وكان إذا تشكك في الشهود ذكَّرهم بالله، ووعظهم ونصحهم، ويقول لهم: لا أمنعكم من الشهادة، وهو يريد بذلك أن يترك لهم فرصة للتراجع عن شهادة الزور، وكان يقول للشاهدين: إنما يقضى على المدعى عليه بقولكما، وأما أنا فأتقي بكما عذاب الله؛ لاعتمادي على شهادتيكما، فاتقيا الله في نفسيكما، ولا تشهدا إلا بحق.

---

(١) البداية والنهاية (٩/ ٢٢)، وفيات الأعيان (٢/ ٤٦٠)، سير أعلام النبلاء (٤/ ١٠٠) إيقاظ الهمم العالية لاغتنام الأيام الخالية صفحة (٤٥).

ومن أقضيته الشهيرة: أن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - اشترىٰ فرسًا من رجل وسار به، فعرج الفرس، فقال عمر لصاحب الفرس: خذ فرسك، فرفض صاحب الفرس، وانطلقا إلىٰ شريح ليحكم بين الخليفة وأحد المسلمين، استمع إليهما شريح ثم قال: يا أمير المؤمنين، لقد أخذت الفرس وهو سليم، فرده كما أخذته، أو خذ بما ابتعته، فقال عمر - رضي الله عنه -: وهل القضاء إلا هذا؟! سر إلىٰ الكوفة، فقد وليتك قضاءها، وكان ذلك أول عهده بالقضاء.

وعندما تولىٰ الخلافة علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - قال لأهل الكوفة: أيها الناس، ليأتيني علماؤكم وفقهاؤكم يسألوني وأسألهم، فلما كان من الغد، ذهب إليه العلماء والفقهاء حتىٰ امتلأت الساحة، فجعل يسألهم ما كذا؟ وما كذا؟ ويسألونه: ما كذا؟ ما كذا؟ فيخبرهم ويخبرونه، حتىٰ إذا ارتفع النهار ذهبوا إلا شريحًا ظل جاثيًا علىٰ ركبتيه، لا يسأله عن شيء إلا أخبره به، حتىٰ قال له علي: قم يا شريح، فأنت أقضىٰ العرب.

وذات يوم فقد أميرُ المؤمنين عليُّ بن أبي طالب رضي الله عنه درعه، ثم وجده عند رجل نصراني؛ فذهب يخاصم النصراني عند شريح القاضي، وقال لشريح: هذا الدرع درعي، فقال شريح للنصراني: ما تقول فيما يقول أمير المؤمنين؟ فقال النصراني: الدرع درعي، وما أمير المؤمنين عندي بكاذب، فالتفت شريح إلىٰ عليٍّ بن أبي طالب وقال: هل لك من بينة؟ فقال عليٌّ - رضي الله عنه -: لا، فقضىٰ شريح بالدرع للنصراني، فقال النصراني: أشهد أن هذه أحكام الأنبياء، أمير المؤمنين يشكوني إلىٰ قاضٍ فيحكم القاضي لي علىٰ أمير المؤمنين؟! أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله، الدرع درعك يا أمير المؤمنين، سقط عنك يوم صفين، فقال عليُّ بن أبي طالب: أما

وقد أسلمت فهي لك.

ومن أقضيته: أن رجلين شهدا لرجل على آخر بدَيْنٍ، فقال أحدهما: أشهد أن عليه ١٣٠٠ درهم، وقال الآخر: أشهد أن عليه ١٠٠٠ درهم، فقضى شريح للرجل بألف درهم، فقال المدعى عليه: كيف تقضي عليَّ وقد اختلف الشهود؟! فقال شريح: إنهما اتفقا على مقدار الألف درهم، فقضيت به.

وذات يوم قال له ابنه: إن بيني وبين بني فلان خصومة فانظر فإن كان لي الحق خاصمتهم وإن لم يكن لي الحق لم أخاصمهم وحكى لأبيه كل شيء.

استمع شريح إلى ابنه ثم قال: انطلق فخاصمهم ولم يتردد الابن فخاصمهم ورفع الأمر إلى القاضي شريح فقضى على ابنه، ولما عاد شريح إلى البيت قال له ابنه: والله لقد فضحتني، ألم أخبرك بالأمر قبل الخصومة. قال شريح: نعم والله يا بني لأنت أحب إلي من ملء الأرض مثلهم ولكن الله أعز علي منك ولقد خشيت أن أخبرك أن القضاء عليك فتصالحهم فتذهب ببعض حقوقهم.

ومن أقواله الطيبة: الحِلْمُ خير من سوء الظن.

وحينما سأله رجل: كيف أصبحت؟

قال: أصبحت طويل الأمل، قصير الأجل، سيئ العمل.

توفي - رحمه الله - سنة ٧٨ هـ بعد أن عاش ١٢٠ سنة، قضى منها في الإسلام ٦٠ سنة في سلك القضاء.

* * *

القاضي أبو يعلى[1]
ما فعل الله بك؟

القاضي محمد بن الحسين بن محمد أبو يعلى بن الفراء، شيخ الحنابلة في زمانه، جمع بين الإمامة، والفقه، والصدق، والتعبد، والخشوع، وحسن الخلق، وحسن السمت، والصمت عما لا يفيد.

ولد سنة ٣٨٠هـ، وتعلم القرآن، وشيئًا يسيراً من «مختصر العراقي» على يد الشيخ الزيادي، وعندما طلب الزيادة في العلم قال له: هذا ما عندي، إن أردت الزيادة فعليك بالشيخ أبي عبد الله بن حامد، فذهب إليه ولازمه وتفقه على يديه، وبرع في مذهب الإمام أحمد بن حنبل، وعندما خرج الشيخ أبو عبد الله بن حامد للحج سنة ٤٠٢هـ سأله طلبة العلم: على من ندرس؟ وإلى من نجلس حتى تعود؟ فأشار إلى أبي يعلى وقال: إلى هذا الفتى، وكان عمره في ذلك الحين ٢٢ سنة.

وقد بدأ سماعه للحديث سنة ٣٨٥هـ وهو صغير لم يتعد خمس سنوات من عمره، وسمع من أبي الحسين السكري، وكان ذا همة عالية في طلب العلم، فسمع من علماء كبار؛ أشهرهم: الحافظ يحيى بن معين، وسمع من جماعة عن البغوي عن أحمد بن حنبل، وسمع الحديث بمكة، ودمشق، وحلب.

حج سنة ٤٨٤هـ، ثم عاد إلى دروس علمه حتى أصبح عالم العراق في الأصول والفروع، وتقدم على أقرانه، وسبق أهل زمانه من العلماء والفقهاء

---

(١) طبقات الحنابلة (٢/ ١٩٣)، البداية والنهاية (١٢/ ٩٤).

بقراءته للقرآن الكريم بالقراءات العشر، وكثرة سماعه للحديث وعلو إسناده في المرويات، وبرع في سائر العلوم والفنون، مع الزهد والورع، والعفة والقناعة، والانقطاع عن الدنيا وأهلها، والانشغال بالعلم و نشره.

كان محبوبًا عند الأمراء،والسلاطين، والخلفاء، وعامة الناس، وكانت له مؤلفات كثيرة في الرد على أصحاب البدع والأهواء، والأشعرية والكرامية والمجسمة.

وفي سنة ٤٣٢هـ صنف كتابًا في إبطال التأويلات، فطلبه الخليفة القائم بأمر الله ليقرأه، ثم أعاده إليه وشكره، وشاع هذا الكتاب وانتشر، فأغضب ذلك بعض المتأولين، فشكوه للخليفة، فأمر الخليفة بعقد مجلس للعلماء لمناقشة المتأولين في الصفات، وحضر أبو يعلى المجلس، وتكلم بالأدلة الشرعية، فأجاد وأفاد، ونصر أهل السنة، وأيده العلماء والسلطان في ذلك، وقال: القرآن كلام الله، والصفات كما جاءت بالقرآن والسنة ولا نتعرض لها.

بعد وفاة قاضي القضاة ابن ماكولا ولاَّه الخليفة القضاء بدار الخلافة، والحريم والأموال والدماء والفروج، فأبى وامتنع، فكرر عليه الخليفة الطلب، فرفض، فما زالوا يلحون عليه حتى وافق، واشترط عليهم شروطًا؛ منها: أنه لا يحضرأيام المواكب، ولا يخرج في الاستقبالات، ولا يقصد دار السلطان، ويستخلف من ينوب عنه في القضاء بين الحريم، فأجيب إلى ذلك، ولم يزده القضاء فخرًا، ولكن كسا بالفخر سائر الأحكام.

وكان يزداد علمًا ونبلاً كلما تقدم به العمر، وكانت أخلاقه في غاية السمو، كريمًا صبورًا على المكاره، يعفو عن الزلل إن جاء من صديق، ويتعطف بالإحسان مع الكبير والصغير، ويضع المعروف للبعيد والقريب مع انقطاعه عن الدنيا، وبُعْدِهِ عن أبواب السلاطين.

وما زال هذا حاله حتى توفي رحمه الله،في شهر الرحمة في العشرين من شهر رمضان سنة ٤٥٨هـ وله ثمان وسبعون سنة .

وقد رآه بعض تلاميذه في المنام، فقال له : ما فعل الله بك؟ فقال أبو يعلى : رحمني، وغفر لي، وأكرمني، وجعل يعد ذلك على أصابعه، فقال له : بالعلم؟ فقال : بل بالصدق .

❊ ❊ ❊

العلامة مجد الدين أبو الطاهر قاضي اليمن[1]
لا ينام حتى يحفظ مائتي سطر

ولد سنة ٧٢٩هـ باليمن، وحفظ القرآن الكريم في صغره، ثم تعلم اللغة ومهر فيها، وفاق أهل زمانه، وهو مازال شابًّا صغيراً، طلب الحديث، وسمع من كبار العلماء؛ منهم: الإمام الحافظ الحجة ابن القيم تلميذ شيخ الإسلام ابن تيمية.

و سمع بالشام من الشيخ تقي الدين أبي الحسن السبكي الكبير، وولده السبكي الصغير، وقاضي القضاة ابن جماعة، وكان سريع الحفظ، وكان يقول عن نفسه: لا أنام حتى أحفظ مائتي سطر.

رحل في البلاد شمالاً و شرقًا لطلب العلم، فأخذ من العلماء وأخذوا عنه، و ظهرت فضائله، واشتهر علمه، وسطع نجمه، وكان مكرمًا في كل مكان لعلمه وفضله، رحل إلى الهند، ثم دخل اليمن فتلقاه ملكها الأشرف إسماعيل بالتكريم و الاحترام، وولاّه القضاء، وبالغ في إكرامه، ثم توجه إلى تيمور لنك، فأكرمه وعظمه، وأعطاه خمسة آلاف دينار، ولم يدخل بلداً إلا وأكرمه أميرها، وأحبه أهلها، وجمع مالاً كثيراً، ومع ذلك كان قليل المال لكثرة نفقاته.

كان لا يسافر إلا ومعه أهم شيء في حياته (الكتب) كان يحمل معه كتبه على عدة أجمال، وله مؤلفات كثيرة في اللغة و التفسير والحديث.

توفي بزبيد باليمن سنة ٨١٦هـ عن سبع و ثمانين سنة، قضاها طالبًا للعلم في مشارق الأرض ومغاربها، ومات وهو متمتع بحواسه رغم كبر سنه.

(١) أبجد العلوم (٣/ ٩).

قاضي القضاة ابن جماعة[1]
أشتهي أن أموت بأحد الحرمين

الشيخ الإمام العالم العلامة الحافظ قاضي القضاة بدر الدين أبو عبد الله ابن الشيخ الإمام الزاهد أبي إسحاق إبراهيم بن عبد الله.

ولد سنة ٦٣٩هـ بحماه، وحفظ القرآن الكريم، وسمع الحديث، واشتغل بالعلم، ورحل إلى دمشق، ومكة المكرمة، والمدينة المنورة، والقاهرة المحروسة؛ لسماع الحديث، وحصَّل علومًا كثيرة متعددة، وتقدم، وساد أقرانه، ودرَّس وأفتى وصنف الكتب المفيدة.

عندما وصل إلى مصر أكرمه السلطان إكرامًا زائدًا، وأحبه وقلده سنة ٦٨٧هـ القضاء والخطابة والتدريس بالقدس الشريف، وظل بالقدس ثلاث سنوات، أجاد وأفاد، ثم عاد إلى مصر وتولى قضاء مصر بعد وفاة قاضيها الشهير ابن دقيق العيد، وجمع له قضاء مصر والخطابة ومشيخة الشيوخ والتدريس، وظل كذلك مدة طويلة يقضي ويدرس مع الرياسة التامة والديانة والصيانة والورع وكف الأذى عن الناس.

وفي عام ٧٣٢هـ طلب إعفاءه من القضاء وسائر المناصب، فقد ضعفت صحته، وأراد التوجه إلى الحرمين الشريفين للإقامة بهما، وكان يقول: أشتهي أن أموت وأنا معزول عن القضاء، وأن تكون وفاتي بأحد الحرمين الشريفين،

---

(١) البداية والنهاية (١٤/ ٣١٩)، ذيل تذكره الحفاظ (١/ ١٠٧).

وأعطاه الله ما تمنى، فقد وافق السلطان على طلبه، وسافر إلى المدينة المنورة لزيارة مسجد رسول الله ﷺ، ثم رحل إلى مكة وظل بها حتى مات سنة ٧٣٣هـ وهو يقرأ القرآن، وله أربع وتسعون سنة وشهر وأيام.

* * *

القاضي الرئيس أبو عمر النسوي[١]
لا أبيع الدنيا بالدين

أقضى القضاة محمد بن عبد الرحمن بن أحمد بن علي، أبو عمر النسوي، كان يُعرف بالقاضي الرئيس.

ولد سنة ٣٧٨هـ، ورحل إلى العراق ومصر لطلب العلم، وسافر كثيرًا، وسمع الحديث بنيسابور من الإمام أبي إسحاق الإسفراييني وغيره، وروى عنه خلق كثير، وفاق أهل عصره علمًا وفضلاً، وتقدم على أبناء دهره رتبةً وجلالةً، وحشمةً و نعمة وقولاً و فعلاً، كان له العلم الوافر في العلوم الشرعية الدينية، ولغويًّا نحويًّا، مفسرًا فقيهًا ومحدثًا ومدرسًا، وكان لا يذكر أحدًا إلا بخير.

وقال عنه ابن السمعاني: القاضي الرئيس كان من أكابر أهل عصره عند العلماء وعند الأمراء.

ولاَّه أمير المؤمنين القضاء، ولقبه بقاضي القضاة، فتولى قضاء خراسان، وبنى بها مدرسة من ماله مساهمة في نشر العلم، وكان ملوك وسلاطين خوارزم يعتمدون عليه في الأمور الهامة، فقد أرسله السلطان ملك شاه ليخطب له بنت الخليفة، فلما ذهب إلى الخليفة وبلغه رسالة ملك شاه قال: هذه الرسالة وبقيت النصيحة.

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى (٤/ ١٧٦).

فقال الخليفة: قل.

فقال القاضي: لا تخلط بيتك الطاهر النبوي بالتركماني.

فقال الخليفة: سمعنا رسالتك، وقبلنا نصيحتك.

وعاد إلى السلطان ملك شاه، فوجده قد علم بما تم، وعاتبه في ذلك.

فقال: قال رسول الله ﷺ: «**الدين النصيحة**» وأنا لا أبيع الدنيا بالدين، فزادت مكانته، وظل مقدمًا محترمًا مكرمًا حتى توفي سنة ٤٧٨هـ رحمه الله.

* * *

القاضي ابن سماعة[1]
ريحانة العلم
كان يصلي في اليوم والليلة مائتي ركعة

قاضي بغداد العلامة أبو عبد الله محمد بن سماعة بن عبيد الله بن هلال الكوفي من أهل الدين والعلم والعمل.

تفقه علىٰ قاضي القضاة أبي يوسف، ومحمد، وروىٰ عن الإمام الليث بن سعد، وله مصنفات كثيرة.

ولاَّه أمير المؤمنين المأمون القضاء ببغداد، فحكم وعدل، ونصر المظلوم وقهر الظالم، وقرن الفعل بالعمل، فكان يصلي نافلة في اليوم والليلة مائتي ركعة، ولم تفته تكبيرة الإحرام في جماعة مدة أربعين سنة سوىٰ صلاة واحدة يوم وفاة والدته، انشغل بدفنها؛ ففاتته صلاة واحدة، فصلاها خمساً وعشرين صلاة، ثم نام، فقيل له في المنام: يامحمد، قد صليت خمساً وعشرين صلاة، ولكن كيف لك بتأمين الملائكة؟

توفي سنة ٢٣٣هـ، فحزن عليه الناس والعلماء، وقال عنه يحيىٰ بن معين إمام أهل الحديث: اليوم مات ريحانة العلم من أهل الرأي، لو أن المحدثين يصدقون في الحديث كما يصدق ابن سماعة في الفقه لبلغوا القمة، مات رحمه الله وله من العمر ١٠٣ سنة.

---

(٢) سير أعلام النبلاء (١٠/ ٦٤٦) شذرات الذهب (١/ ٧٨).



القاضي أبو الأسود الدؤلي[(١)]
واضع علم النحو

قاضي الكوفة، وواضع علم النحو، ظلام بن عمرو بن سفيان بن جندل الشهير بـ «أبو الأسود الدؤلي» من أكمل الرجال عقلاً.

أسلم في حياة النبي ﷺ، ولم يره، وكان من سادات التابعين وأعيانها بالبصرة، صحب علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ وتعلم منه، وشهد معه صفين.

وإليه ينسب علم النحو، وهو أول من تكلم فيه، وقد أخذ هذا العلم عن عليٍّ ـ رضي الله عنه ـ حيث ذكر له أن الكلام اسم، وفعل، وحرف، ثم إن أبا الأسود نحا نحوه، وفرَّع على قوله، وسلك طريقه، فسمي هذا العلم نحواً.

وكان الدافع له تغير اللغة، ودخول اللحن في كلام بعضهم أيام ولاية زياد على العراق، وكان أبو الأسود مؤدب بنيه، فأمره زياد بأن يضع علماً يهتدون به إلى معرفة كلام العرب.

ويقال: إن ابنة زياد قالت له: يا أبة، ما أحسنُ السماءِ؟

فقال زياد: نجومُها.

فقالت: إني لم أسأل عن أحسنها، إنما تعجبت من حسنها.

فقال لها أبوها: قولي: ما أحسنَ السماءَ!!

---

(١) وفيات الأعيان (٢/ ٥٣٥)، البداية والنهاية (٨/ ٣١٢).

وكان له جار يتأذىٰ منه في كل وقت، فباع داره، فقيل له: بعت دارك؟

فقال: بل بعت جاري!

سمع رجلاً يقول: من يعشي الجائع؟

فقال: أحضروه، فعشاه، ثم قام الرجل يريد الانصراف، فقال له أبو الأسود: إلىٰ أين تريد؟

فقال: أهلي.

فقال: هيهات، ما عشيتك إلا علىٰ ألاَّ تؤذي المسلمين الليلة، وحبسه حتىٰ لا يخرج ويتسول مرة أخرىٰ، وأطلقه في الصباح.

توفي سنة ٦٩هـ، وقيل له عند الموت: أبشر بالمغفرة، فقال: وأين الحياء من صاحب المغفرة؟!

* * *

القاضي عياض[1]
ناصر السنة

القاضي عياض بن موسىٰ بن عياض إمام وقته في الحديث وعلومه، والنحو، واللغة، وكلام العرب، وأيامهم.

ولد سنة ٤٧٦هـ بمدينة سبتة، وكانت تعيش نهضة علمية وفكرية، فهي دار علم، وموطن العلماء والفقهاء، وكان بيته من البيوت الصالحة.

حفظ القرآن الكريم بقراءاته السبع، وكان يتسم بالذكاء والفهم والحرص علىٰ طلب العلم، فتعلم العربية حتىٰ أجادها، وبرع في علومها، وتعلم الفقه وأصوله، وعلم الحديث، ثم طلب الزيادة، فرحل إلىٰ الأندلس سنة ٥٠٧هـ لتلقي العلم من شيوخها وعلمائها.

وكان كثير الاهتمام بالحديث وجمعه وتدوينه، واجتهد في تحصيل العلوم حتىٰ أصبح عالمًا موسوعيًّا في التراجم واللغة والنحو والفقه والحديث، واستطاع أن يؤلف كتاب «مشارق الأنوار في تفسير غريب حديث الموطأ والبخاري ومسلم» وضبط ألفاظ هذه الكتب بالإضافة إلىٰ تحقيق أسماء رجالها.

تولى قضاء غرناطة سنة ٥٣٢هـ، فكان صُلبًا في الحق، لا تأخذه في الله لومة لائم، مجدًّا في طلب العلم، محرضًا علىٰ تحصيله، كثير التواضع، يقبل علىٰ المساكين والفقراء، ويسأل عن أحوالهم، ويكثر الصدقة عليهم، ويعاشر

(١) الديباج المذهب (١/ ١٧)، سير أعلام النبلاء (٢٠/ ٢١٢)، حركة الإسلام في أفريقيا

الناس بالأخلاق الحسنة، لين الجانب، كريم السجايا، وكان له هيبة وجلالة عند الأمراء مما جعلهم يقبلون قوله حين يطالبهم بأداء حقوق الرعية، ويتنافسون في قضائها.

وعندما حاول المهدي بن تومرت ملك دولة الموحدين الشيعية إلزام أهل المغرب بمذهبه في عصمة الإمام ثار عليه أهل المغرب، وتزعم القاضي عياض الثورة في مدينة سبتة، فقبض عليه، ونفي من سبتة، وظل بعيداً عن أهله ووطنه حتىٰ مات بمراكش سنة ٥٤٤هـ.

وكان رحمه الله شديد التمسك بالسنة، كثير العبادة، كثير الصوم، قوامًا بالليل، تاليًا لجزء من كتاب الله في الثلث الأخير من الليل، ملتزمًا بحدود الشريعة، وترك مصنفات كثيرة؛ أشهرها كتاب «الشفا بأحوال المصطفىٰ» أبدع فيه كل الإبداع، وسلم له أكفاؤه بكفاءته فيه، وحمله الناس إلىٰ كل البلاد، وكتاب «مشارق الأنوار في تفسير غريب حديث الموطأ والبخاري ومسلم» وهو كتاب لو كتب بالذهب أو وزن بالجواهر لكان قليلاً في حقه.

❊ ❊ ❊

القاضي محمد بن حمزة الفنادي[1]
أرجو أن يشفيني الله ويعميه

محمد بن محمد بن حمزة الفنادي، العالم الفقيه، والزاهد الصادق، والقاضي العادل.

ولد في صفر سنة ٧٥١هـ، وأتم حفظ القرآن الكريم في صغره، ثم طلب العلم، وسمع «شرح المغني» على يد الشيخ علاء الدين الأسود من شيوخ بلده، ثم ارتحل إلى القاهرة، وأخذ العلم من شيوخها وعلمائها، ثم رحل إلى تركيا، فولاَّه السلطان بايزيد قضاء بروسيا، واشتهر أمره، وشاع فضله، وارتفع قدره عند السلطان، وحاز أعلى المراتب، وصار كالوزير.

قال عنه الحافظ ابن حجر: كان عارفًا بالعربية والمعاني والبيان والقراءات، كثير الفضل والأفضال، حسن السمت.

خرج لأداء فريضة الحج سنة ٨٢٣ هـ، فمر بالقاهرة، واجتمع به فضلاء مصر وعلماؤها، وذاكروه وباحثوه، وشهدوا له بالعلم، فذهب للحج وعاد مرة أخرى للقاهرة، واجتمع بعلمائها وشيوخها، فأكرموه وأحبوه، ثم ذهب إلى المسجد الأقصى وصلى به ثم عاد إلى تركيا، وجلس للتدريس والتعليم والتأليف.

وله مصنفات كثيرة؛ أشهرها: «فصول البدائع في أصول الشرائع» وهو من

---

(١) البدر الطالع (٢/ ٢٢٦).

أجلِّ الكتب الأصولية وأنفعها للناس، استغرق في تأليفه ثلاثين سنة، وقد انتفع بعلمه طلبة العلم في تركيا، وقصده الناس من كل مكان مع اشتغاله بالقضاء والفصل بين الناس بالحق، فصار نجمًا لامعًا، وضوءًا ساطعًا في سماء تركيا، وأحبه السلطان والأمراء، والصغير والكبير.

وعاش في نعمة وافرة، وكان عبيده يلبسون أفخر الملابس وأغلاها، وكان هو متزهدًا في ملبسه ومأكله، لم تفتنه الدنيا وهي في يديه، بل وضعها تحت قدميه، وعندما عوتب في ملبسه وطعامه قال: إن ثيابي وطعامي من كسب يدي، ولا يفي كسب يدي بأحسن من هذا، يقول هذا وعبيده يلبسون أفضل منه، ويأكلون خيرًا منه، ولم يلزمهم بما ألزم به نفسه من التقشف في الدنيا، فزاده ذلك مهابة وجلالة واحترامًا عند السلطان بايزيد وسائر الأمراء.

وكان آية في صدقه وورعه، وقيامه بالحق وتثبته في القضاء، لا يخشى في الحق إلا الله عز وجل، وقد رد شهادة السلطان بايزيد في قضية عرضت عليه، فبلغ الخبر السلطان، وتحير وتعجب، كيف يرفض القاضي شهادة سلطان البلاد؟ وسأله: لماذا رفضت شهادتي ورددتها؟

فقال القاضي بصدق وحسم: لأنك لا تصلي مع الجماعة، وعرف السلطان خطأه، وندم، وبنى مسجدًا أمام قصره، ولم يترك صلاة الجماعة بعد ذلك، وكان ذلك حسنة من حسنات القاضي الفنادي.

وقد جرى بين القاضي الفنادي وبين السلطان بايزيد بعض الأمور؛ فترك بلاده وارتحل إلى بلاد قرمان، فأكرمه ملك قرمان، ورتب له كل يوم ألف درهم، ولطلبته خمسمائة درهم كل يوم، وأكمل الفنادي مسيرته في قرمان، يعلم وينشر الخير والحق.

وبعد فترة راجع السلطان بايزيد نفسه، وندم على ما فعل بحق الشيخ الفنادي، فأرسل إلى ملك قرمان يستأذنه ويطلب منه إرسال الشيخ الفنادي فأجابه لذلك.

وعاد الفنادي إلى تركيا مرة أخرى قاضيًا ومعلمًا ومدرسًا، وظل كذلك حتى كبر وضعف بصره، فقال وزير السلطان: أرجو أن أصلي على هذا الأعمى، فسمعه الشيخ الفنادي، فقال: إنه لا يحسن الصلاة على الميت، وأرجو الله أن يشفيني ويعميه وأصلي عليه، فاستجاب الله له وشفاه، وعمي الوزير، ومات وصلى عليه الفنادي.

ثم ذهب للحج سنة ٨٣٣هـ شكراً لله على رد بصره، ثم عاد إلى بلاده ومات.

* * *

القاضي عز الدين بن عبد السلام [١]
دخل الحق قلبه ونطق على لسانه

الإمام العالم بائع الأمراء وسلطان العلماء ، شيخ الإسلام وفخر الأنام عبد العزيز بن عبد السلام بن القاسم بن الحسن الدمشقي الشامي .

أجمع علماء عصره على أنه سلطان العلماء، وسيد الفقهاء ، فقد تمكن من علوم كثيرة ، وكانت جرأته في الحق مثار الدهشة والعجب ، حتى إنه عرف بأنه القائم بالأمر بالمعروف ، والناهي عن المنكر ، الصادع بالحق .

ولد سنة ٥٨٨هـ بدمشق، ودرس على علمائها الثقات ، ثم رحل إلى بغداد ، وجالس علماءها ، وأخذ منهم ثم عاد إلى دمشق ، وقد أصبح واسع المعرفة ، كثير العلم ، وأسند إليه الخطابة بالجامع الأموي بدمشق ؛ فشن الحرب على الباطل ، وأصحاب البدع والخرافات ، فشوشوا عليه عند الملك الأشرف (موسى بن العادل) سلطان دمشق ، فعزله عن الخطابة والفتوى ، واعتقله ، وأمره بعدم الاجتماع بأحد ، وعدم الفتوى ، فقال : إن هذا من نعم الله علينا ، والسعيد من لزم بيته وبكى على خطيئته ، واشتغل بطاعة ربه ، وهذه نعمة كبرى أجراها الله على يد السلطان ، وهو بها غضبان وأنا بها فرحان ، وعندما علم السلطان بما قاله العز بن عبد السلام قال : ماذا أفعل ؟ هذا رجل يرى العقوبة نعمة .

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى (٨/ ٢١٥) ، شذرات الذهب (٣/ ٣٠١) ، البداية والنهاية (١٣/ ٢٣٥) .

وظل الشيخ معتقلاً ثلاثة أيام حتىٰ علم بما حدث له الشيخُ جمال الدين الحصيري شيخ الحنفية بدمشق، فذهب إلىٰ الملك الأشرف وقال: إيش بينك وبين ابن عبد السلام؟ هذا رجل لو كان في الهند أو في أقصىٰ الدنيا لكان علىٰ السلطان أن يسعىٰ ويجتهد في حضوره لبلده؛ لتتم بركته عليه وعلىٰ بلاده، ويفتخر به علىٰ سائر الملوك، فقال السلطان: نستغفر الله مما جرىٰ، ونستدرك ما فرطنا في حقه، لقد غلطنا في حق ابن عبد السلام غلطة عظيمة، وأرسل إليه يسترضيه، ويطلب منه زيارته، والدعاء له، فذهب إليه الشيخ، فقال له السلطان: اجعلني في حلٍّ، وادعُ لي وانصحني، وقبَّل يد الشيخ، واغتنم العزُّ هذه الفرصة ليصلح بين سلطان الشام وبين أخيه الكامل سلطان مصر، وقال له: كيف تعد الذخيرة والسلاح وتجمع الجيوش لمحاربة أخيك الملك الكامل سلطان مصر وهو أخوك، وجنوده مسلمون كجنودك، فتضيع الدماء الطاهرة في خلاف لا يعود علىٰ الإسلام والمسلمين بغير النكبة والخسران؟! إن جيوش الصليبيين تخوض في دماء المسلمين، وأولىٰ بكما أن تتحدا علىٰ درء خطرهم، ومازال به حتىٰ أقنعه بعدم قتال أخيه، وأقنعه أيضًا بإصدار منشور يبطل الخمر والأمور المحرمة، وحينما همَّ العزُّ بالانصراف أمر له الملك بألف دينار، فردها قائلاً: هذا اجتماع لله، فلا أكدره بشيء من عرض الحياة.

وبعد وقت قليل توفي الأشرف وتولىٰ مكانه أخوه الصالح إسماعيل، ونشأ خلاف بينه وبين أخيه سلطان مصر، فتعاون سلطان دمشق مع الصليبيين وتعاون معهم وسلم لهم بعض بلاد الشام، وسمح لهم بدخول دمشق وشراء ما يريدون من أسلحة وعتاد وطعام، فعظم ذلك علىٰ الشيخ، وندد بالملك الصالح إسماعيل، وشدد في النكير عليه، وأفتىٰ بحرمة بيع السلاح للصليبيين، فأمر الملك بحبسه، وأرسل إليه رسولاً يقول له: إذا أردت العودة

إلىٰ مناصبك فعليك بالانكسار إلىٰ السلطان وتقبيل يده، فقال الشيخ: والله يا مسكين، ما أرضاه أن يقبل يدي، فضلاً عن أن أقبل يده، يا قوم، أنتم في وادٍ، وأنا في وادٍ، الحمد لله الذي عافاني مما ابتلاكم به.

وذات يوم زار ملوك الفرنج الملك الصالح إسماعيل، وكان الشيخ معتقلاً في خيمة بجوار السلطان، وكان يقرأ القرآن في خيمته، فقال لهم الملك: أتسمعون هذا الشيخ الذي يقرأ القرآن؟ فقالوا: نعم، قال: هذا أكبر شيوخ المسلمين قد حبسته؛ لإنكاره عليَّ تسليمي لكم حصون المسلمين، وعزلته عن الخطابة وعن جميع مناصبه، وقد حبسته من أجلكم، فقالت له ملوك الفرنج: لو كان هذا قِسِّيسَنَا لغسلنا رجليه بأيدينا وشربنا الماء.

ثم أطلق سراحه بعد ذلك فتوجه إلىٰ مصر، فأكرمه الملك الصالح نجم الدين أيوب سلطان مصر، وقلده القضاء والخطابة، وفوض إليه عمارة المساجد المهجورة بالديار المصرية.

وعاش في مصر موقرًا مكرمًا، يعلم ويقضي بين الناس، ومر ذات صباح علىٰ الملك الصالح أيوب في يوم عيد والجيوش تمر بين يديه، فقال له الشيخ: يا أيوب، ما حجتك عند الله إذا قال لك: ألم أبوئك ملك مصر ثم تبيح الخمور؟! فدهش الملك وقال: هذا من زمن أبي، وما فعلت شيئًا، فقال له الشيخ: أأنت من الذين يقولون: ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ ﴾؟! [الزخرف: ٢٣] فأصدر السلطان أوامره بإغلاق الحانات فوراً.

وكما جاهد الشيخ بلسانه وبيانه، جاهد بسيفه وسنانه، فعندما هاجم الصليبيون دمياط خرج الشيخ مع المجاهدين يقاتل ويحرض علىٰ القتال، وعندما اشتد القتال في البحر وكانت الرياح قوية وساعدت سفن الصليبيين واستظهروا علىٰ المسلمين، فلما رأىٰ الشيخ ذلك نادىٰ بأعلىٰ صوته مشيراً بيده

إلى الريح : يا ريحُ خذيهم - عدة مرات - فعادت الرياح على مراكب الفرنج، فكسرتها وغرق بعضها، وتم النصر ، ونادى منادٍ من بين صفوف المسلمين قائلاً : الحمد لله الذي أراني في أمة محمد رجلاً سخر له الريح .

وعندما هاجم التتار البلاد الإسلامية حض سلطان مصر على قتالهم، وقال : اخرجوا لقتالهم، وأنا أضمن لكم على الله النصر ، فقال السلطان : إن المال قليل، وأريد أن أقترض من أموال التجار لإعداد الجيوش، وأفتى العلماء بجوازه لدفع العدو، ولكن الشيخ اعترض، وقال : ليس لكم أن تفرضوا ضرائب على الرعية إلا بعد أن تحضر ما عندك وعند حريمك من الذهب والمجوهرات، ويحضر الأمراء ما عندهم وعند حريمهم من الجواهر والذهب، ولا يبقى لكم إلا ما يصلح للعامة؛ فيتساوى الجميع، عند ذلك يحل لكم جمع المال، فأذعن السلطان والأمراء، ثم كان النصر على التتار في عين جالوت .

وبعد وفاة السلطان قطز طلب الظاهر بيبرس البيعة لنفسه، فبايعه الناس، وامتنع العزُّ من مبايعته قائلاً له : أنا أعرفك مملوكًا، ولم يثبت عندي عتقك، فكيف أبايعك؟ يقول ذلك للظاهر بيبرس الذي قهر التتار والصليبيين، وكانت تخشاه الأسود، ولم يجد بيبرس مفراً من إحضار شهود يشهدوا بأن سيده قد أعتقه وصار حرًّا .

وكان لمماليك الأتراك نفوذ كبير، وكان الشيخ يرى أنهم أرقَّاء، وأنهم مِلْكُ بيت مال المسلمين، ويجب أن يباعوا، وكان من بين الأمراء نائب السلطان، فغضب، وقال : كيف يبيعنا هذا الشيخ ونحن ملوك الأرض؟! والله لأضربنه بسيفي هذا، وجمع الأمراء وذهب إلى بيت الشيخ وطرق الباب بعنف، فخرج ابن الشيخ وشاهد الأمراء والسيوف بأيديهم، فعاد إلى أبيه وقص عليه ما شاهده، فما اكترث، وما اهتز، وقال : ياولدي، أبوك أقل من

أن يقتل في سبيل الله، ثم خرج إلى الأمراء، وكانت له هيبة في نفوس الناس، وأنزل الله عليهم الخوف؛ فارتعش نائب السلطان، وسقط السيف من يده وبكى، وسأل الشيخَ أن يدعو له، وقال: يا سيدي، ما يرضيك؟ قال الشيخ: أنادي عليكم وأبيعكم، قال: وفِيمَ تصرف ثمننا؟ قال الشيخ: في مصالح المسلمين، وتم له ما أراد، وباعهم، وغالى في ثمنهم، واشتراهم السلطان وأعتقهم.

وذات يوم أخطأ في الفتوى، فأمر مناديًا أن يطوف بالمدينة ويقول: من أفتاه العزُّ بكذا فليعلم أنه مخطئ.

ولقد عاش الشيخ ثلاثًا وثمانين سنة، كانت كلها بركة ويُمْنًا، وجهادًا باللسان والسنان، وحين أدركه الموت عرض عليه الظاهر بيبرس أن يعين أحد أولاده في منصب القضاء ليخلفه، فأبى، وقال: ليس فيهم من يصلح لهذا الأمر.

وعندما مرت جنازته تحت القلعة وشاهد الظاهر بيبرس كثرة الناس قال: الآن استقر لي ملك مصر؛ لأن هذا الشيخ لو قال للناس: اخرجوا عليَّ لأجابوه.

رحم الله الشيخ العزَّ بن عبد السلام، فقد عاش حياته آمرًا بالمعروف، ناهيًا عن المنكر، مواجهًا للطغيان، لا تأخذه رهبة ولا خشية في مواجهة الفساد، عاش مُدْبرًا عن الدنيا، مقبلاً على الآخرة حتى توفي سنة (٦٦٠)هـ.

* * *

القاضي بكار بن قتيبة[1]
أنا شيخ كبير وأنت عليل
والملتقى قريب والله يحكم بيننا

الصادع بالحق، القاضي بالعدل، العلامة الفقيه، المحدث الحافظ، قاضي قضاة مصر بكار بن قتيبة الحنفي، أحد البكائين، التالين لكتاب الله عز و جل، وَلِيَ قضاء مصر أربعًا وعشرين سنة وستة أشهر.

ولد بالبصرة سنة ١٨٢هـ وسمع الحديث من أبي داود الطيالسي، وأخذ الفقه عن هلال بن يحيىٰ، وعن كبار العلماء في عصره، برع في المذهب الحنفي، وحدث عنه أبو عوانة في «صحيحه» وابن خزيمة، ويحيىٰ بن صاعد، وأبو جعفر الطحاوي، وخلق كثير من أهل مصر.

تولى قضاء مصر من قِبَلِ الخليفة العباسي المتوكل على الله ودخل مصر سنة ٢٤٦هـ، وقابل قاضي مصر السابق محمد بن الليث، وقال له: أنا رجل غريب، وأنت قد عرفت البلد وأهلها، فدلني علىٰ من أشاوره وأعتمد عليه، فقال له: عليك برجلين؛ أحدهما عاقل، وهو: يونس بن عبد الأعلىٰ، والآخر زاهد، وهو: ابن هارون موسىٰ بن عبد الرحمن.

وكان يكثر الوعظ للخصوم والشهود، وإذا طلب من أحدٍ اليمين يتلو عليه

(١) وفيات الأعيان (١/ ٢٧٩)، سير أعلام النبلاء (١٢/ ٥٩٩)، شذرات الذهب (١/ ١٥٨)، تاريخ الخلفاء (١/ ٣٦٥).

قوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلاً أُوْلَئِكَ لا خَلاقَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[آل عمران: ٧٧] وإذا فرغ من الحكم بين الناس خلا بنفسه يراجع ما أصدره من أحكام، ويبكي ويقول: يا بكار، تقدم إليك خصمان في كذا، وحكمت بكذا، فما يكون جوابك بين يدي الله غدًا؟ ثم يجلس للعلم ويملي الحديث علىٰ طلبة العلم، فإذا جاء الليل قام يتهجد ويدعو الله، وقد سمعه أحدهم يصلي بعد العشاء ويقرأ: ﴿ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾[ص: ٢٦] .

وكان عظيم الحرمة مكرمًا محترمًا من العلماء العاملين، وكان سلطان مصر أحمد بن طولون يحضر مجلس علمه، فيجده مملوءًا بطلبة العلم، فما يشعر به القاضي إلا وهو بجانبه.

وعندما تولى الموفق ولاية العهد ضيق علىٰ أخيه الخليفة، ومنعه من مقابلة الناس، فلما بلغ ذلك سلطان مصر أحمد بن طولون طلب منه الحضور إلىٰ القاهرة، والاستقرار بها، فلم يتمكن، فجمع ابن طولون العلماء والأمراء والأعيان والقضاة، وطلب منهم خلع الموفق من ولاية العهد فأجابوه إلا القاضي بكار، فقال: أنت أريتني كتاب أمير المؤمنين بتولية الموفق ولاية العهد فأجابوه، فأرني كتابًا بخلعه.

فقال أحمد بن طولون: أنت شيخ كبير وقد خرفت، وأنا أحبسك حتىٰ يأتيني كتاب بإطلاق سراحك، وحبسه، وطلب منه جميع عطاياه، وكانت ثمانية عشر كيسًا، كل كيس به ألف دينار، فأحضر بكار الأكياس بختمها، لم يَصْرِف منها شيئًا، فاستحيا منه ابن طولون، وكان يظن أنه أنفقها، وأنه يعجز عن سدادها، فوجدها كما هي لم يُصرَف منها شيء.

وأمر ابن طولون بسجنه وظل مسجونًا سنين عديدة، وقد شكا العلماء من انقطاع درس الحديث، وطلبوا من السلطان أن يأذن للقاضي أن يحدثهم من سجنه، فأذن له، فحدث الناس وأفادهم.

ولما مرض ابن طولون مرض الوفاة أرسل للقاضي بكار يسترضيه ويستحله، فقال بكار للرسول: قل له: أنا شيخ كبير، وأنت عليل، والملتقى قريب، والله يحكم بيننا.

فلمَّا علم ابن طولون برده ظل يكرره على نفسه، ثم أمر بنقله من السجن إلى دار مريحة، فانتقل إليها، وظل يحدث الناس ويعلمهم حتى توفي سنة ٢٧٠ هـ بعد وفاة أحمد بن طولون بأربعين يومًا.

* * *

أبو الطاهر محمد بن أحمد بن عبد الله[١]
لا أسجد إلا لله

أبو الطاهر محمد بن أحمد بن عبد الله، العالم الصادق، والقاضي الورع، والفقيه العالم، والمحدث الحافظ.

كان قاضي مصر وقت الفتح الفاطمي لمصر، ولما وصل موكب المعز استقبله الأمراء والأعيان وقبلوا الأرض بين يديه، ورفض أبو الطاهر أن يقبل الأرض كما فعل غيره.

ولما سئل عن ذلك ذكر قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾، فنجاه الله وسلمه.

* * *

(١) الفكر القانوني الإسلامي بين أصول الشريعة وتراث الفقه أ/ فتحي عثمان ٣٢٣.

القاضي أبو خازم[1]
فراسة المؤمن

الفقيه العلامة، قاضي القضاة أبو خازم عبد الحميد بن عبد العزيز السكوني البصري ثم البغدادي الحنفي أحد الأئمة العلماء والسادة الفقهاء.

كان ثقة دينًا ورعًا، أحذق الناس بعمل المحاضر والسجلات، بصيرًا بالجبر، ذكيًا كامل العقل، أخذ العلم من شيوخ البصرة وبغداد، وتفقه على مذهب أبي حنيفة حتى فاق شيوخه، وبه يضرب المثل في كمال العقل، وكان هذا حاله منذ الصغر فقد قال ابن حبيب الذارع: كنا ونحن أحداث مع أبي خازم نُقعده قاضيًا ونحتكم إليه في الخصومات التي تقع بيننا ونحن صغار فما مضت الأيام والليالي حتى أصبح قاضيًا.

ولي القضاء بالشام ثم بالكوفة ثم كرخ بغداد، وكان ذكيًا عادلاً رحيمًا بالناس، قال مكرم بن بكير: كنت في مجلس أبي خازم القاضي، فتقدم إليه شيخ ومعه غلام، وادعى الشيخ أن له عند الغلام ألف دينار، وأقر الغلام بذلك دون نقاش، فقال القاضي للشيخ: ماذا تريد؟

قال: مالي أو حَبْسَه حتى يحضر وليه.

فقال القاضي للغلام: هل تعطيه ماله؟

فقال الغلام: لا، فتفكر القاضي ساعة، ثم أمرهم بالانتظار.

---

(١) سير أعلام النبلاء (١٣/ ٥٣٨)، المنتظم من سنة (٢٥٧)، (٦/ ٥٢).

فقال مكرم: لماذا لم تأمر بحبس الغلام؟ فقال القاضي: ويحك!! إني أعرف وجه المحق من وجه المبطل، وقد وقع في نفسي شيء من الشك، فقد أقر الغلام بالمبلغ بسهولة، ولم يناقش أو يغضب أو ينكر، مع أن المبلغ كبير، وبينما القاضي جالس، إذ دخل رجل تاجر، وقال للقاضي: إن الله ابتلاني بغلام يحتال على تبديد أموالي، فقال القاضي: كيف؟

فقال التاجر: يتفق مع أحد الناس على إقراره بدَيْنٍ حتى يُحْبَس، ويلزمني بدفع الدين وإطلاق سراحه؛ حتى لا تحزن أمه، فتبسم القاضي وأحضر الغلام والشيخ، فوعظ الغلام، وزجر الشيخ، وأخذ التاجر بيد ابنه، وانصرف.

وقال وكيع القاضي: كنت أتقلد أموال الوقف أيام أمير المؤمنين المعتضد بالله ومنها أوقاف الوزير الشهير الحسن بن سهل وذات يوم أراد أمير المؤمنين توسعة قصره فأخذ قطعة أرض مجاورة لقصره وأدخلها في القصر وكانت هذه الأرض ضمن أوقاف الحسن بن سهل فأخبرت القاضي بما حدث فقال: وهل أخذت ما على أمير المؤمنين؟

فقلت: ومن يجسر على مطالبة أمير المؤمنين! فقال القاضي: اذهب إليه الآن وطالبه بما عليه. فقال وكيع: ومن يوصلني إليه الآن؟

فقال: اذهب إلى الحاجب وقل: إنك رسول القاضي إلى الخليفة في أمر مهم، فلما ذهبت إلى الحاجب وأخبرته أسرع بإدخالي على الخليفة، وظن الخليفة أن أمرًا عظيمًا قد حدث، فقلت له: إني وكيل القاضي على أموال الأوقاف، ومنها ما أدخله أمير المؤمنين في قصره من أوقاف الحسن بن سهل، ولما جمعت أموال الأوقاف هذه السنة امتنع القاضي من تفرقته حتى تدفع ما عليك، وأرسلني الآن لهذا السبب وأمرني أن أقول: إني حضرت لأمر مهم حتى أستطيع الوصول إليك.

فسكت الخليفة وتفكر ثم قال: أصاب عبد الحميد، ثم قال كم عليَّ من المال؟

فقلت: أربعمائة دينار فدفعها وشكر القاضي.

وذات يوم بلغه أن أحد العاملين عند السلطان قد وضع أملاكًا لبعض الايتام الصغار بأمر من الوزير عبد الله بن سليمان فذهب القاضي إلىٰ الخليفة وشرح له ما حدث فقال الخليفة: يا عبد الحميد هذه الأملاك تخص أحد عمالي وكان يشرف علىٰ بعض أملاكي وقد خانني واستولىٰ علىٰ أموال كثيرة من أملاكي وقد مات وترك هذه الأملاك وما أخذه مني أكبر من قيمة هذه الأملاك التي أخذتها بأضعاف كثيرة.

فقال القاضي: يا أمير المؤمنين أتذكر يوم وليتني القضاء وقلت لي: قد أخرجت هذا الأمر من عنقي ووضعته في عنقك؟

فقال الخليفة: نعم.

فقال القاضي: ما تدعيه يحتاج إلىٰ بينة ولا أقبل ما تقول إلا بشاهدين، وقد صح عندي أن هذه الأملاك أملاكه يوم مات، ولا سبيل إلىٰ انتزاعها من ورثته إلا ببينة، هذا حكم الله في البالغين فكيف في الأطفال الأيتام؟

فسكت الخليفة ساعة مطرقًا ثم دعا بدواة ووقع بخطه إلىٰ الوزير عبد الله بن سلمان يأمره بإعادة الأملاك إلىٰ الورثة.

توفي رحمه الله سنة (٦٣٧هـ) عن أربع وسبعين سنة كان فيها نعم العالم ونعم القاضي نزيهًا صادقًا كثير الديانة والصيانة والأمانة.

* * *

انشغل بالألم عن الطرب
القاضي أبو بكر الباقلاني [١]

القاضي السفير أبو بكر الباقلاني، محمد بن الطيب، رأس المتكلمين على مذهب الشافعي، له تصانيف كثيرة؛ منها: «التبصرة»، «دقائق الحقائق»، «التمهيد في أصول الفقه»، «شرح الإبانة»، «كشف الأسرار وهتك الأستار»، وهو أفضل ما كتبه، وخصصه للرد على الباطنية.

كان من العلماء الصالحين، وكان لا ينام حتى يكتب عشرين ورقة، وذكر الخطيب أن عضد الدولة بعثه سفيراً إلى ملك الروم، واستقبله الملك، فلما ذهب إليه إذا هو لا يدخل عليه أحد إلا من باب قصير كهيئة الراكع ففهم الباقلاني أن مراده أن ينحني الداخل عليه له كهيئة الراكع لله عز وجل فأدار الباقلاني ظهره للباب ودخل الباب بظهر يمشي إليه القهقرى فلما وصل إلى الملك استدار وسلم عليه فعرف الملك ذكاءه وعلمه فعظمه، وأخذ منه الرسالة.

وأقام حفلة، دعا إليها القاضي، وأحضر في الحفلة آلة طرب تسمى بالأرغل؛ ليستفز عقله بها، وكان لا يسمعها أحد إلا طرب واستخف.

فلما عزف عليها وسمع صوتها القاضي خاف على نفسه أن يظهر منه حركة ناقصة بحضرة ملك الروم، فجرح رجلَه جرحًا، وخرج دم كثير،

---

(١) البداية والنهاية (١١/ ٣٥٠).

فانشغل بالألم عن الطرب، وتعجب الملك، ثم عرف الحقيقة، وأعجب من علو همته، وصِدْق عزيمته؛ لأن هذه الآلة لا يسمعها أحد إلا طرب، شاء أم أبىٰ.

وقد سأله بعض الأساقفة بحضرة ملكهم، فقال: ما فعلت زوجة نبيكم؟ وما كان من أمرها بما رميت من الإفك؟

فقال الباقلاني مجيبًا له على البديهة: هما امرأتان ذكرتا بسوء: مريم وعائشة، فبرأهما الله عز وجل، وكانت عائشة ذات زوج، ولم تأت بولد، وأتت مريم بولد، ولم يكن لها زوج!!

يقصد أن عائشة أولىٰ بالبراءة من مريم، وكلاهما بريئة مما قيل فيهما، فإن تطرق في الذهن الفاسد احتمال ريبة إلىٰ هذه، فهو إلىٰ تلك أسرع، وهما - بحمد الله - منزهتان مبرأتان من السماء بوحيٍ من الله عز وجل، فبهت الذي كفر، كأنه ألقم حجراً، والله لا يهدي الظالمين.

توفي رحمه الله سنة ٤٠٣هـ(*).

* * *

(*) البداية والنهاية (١١/ ٣٥٠).

القاضي الشهيد
ابن كج[1]

أبو القاسم يوسف بن محمد بن كج، من كبار السادة العلماء، تفقه على الشيخ ابن القطان، وجمع بين رياسة الدنيا والدين، وكان يرحل إليه طلبة العلم من كل البلاد؛ رغبة في علمه وجودة فهمه، وكان يضرب به المثل في حفظ المذهب الشافعي، وتلقى العلم على يديه كثير من العلماء، ومن تلاميذه القاضي أبو الطيب الطبري، وصنف كتبًا كثيرة انتفع بها الفقهاء.

كان محتشمًا، جوادًا، ممدحًا، عالي القدر، رفيع المنزلة، ذا نعمة عظيمة، ولِيَ قضاء الدينور أيام الملك بدر بن حسنويه، فأقام العدل، ونشر العلم، ويئس منه الظالم والفاجر، وأحبه الناس، وخافه العيارون، ومازال يقضي بالحق ويعدل بين الخصوم حتى توفي الملك بدر بن حسنويه، وحدث هرج ومرج، وانتهز العيارون هذه الفرصة، وقتلوه ليلة السابع والعشرين من رمضان سنة ٥٠٤ هـ.

رحم الله القاضي الشهيد، فقد عاش حميدًا، ومات شهيدًا، حكم بالعدل، ودفع حياته ثمنًا لعدله، فوفقه الله إلى حسن الخاتمة، واختار له خير الشهور وخير الليالي.

* * *

(١) الكامل في التاريخ (٨/ ٨٥)، طبقات الشافعية الكبرى (١١/ ١٩٩)، البداية والنهاية (١١/ ٣٥٥)، وفيات الأعيان (٢/ ٥١٤).

القاضي شمس الدين الحريري [1]
كان رأساً في الحق

محمد بن عثمان بن الحسن بن عبد الوهاب الحريري القاضي الحنفي، كان أبوه يتاجر في الحرير؛ فنسب إليه.

ولد سنة ٦٥٣هـ، وسمع الحديث على المقداد القيسي، والمسلم بن علان، وغيرهما، وحدث وتفقه، وعلا شأنه، وارتفع قدره، وتولى قضاء دمشق والتدريس بها، ثم طلب إلى مصر.

وتولى القضاء بالديار المصرية سنة ٧١٠هـ خلفًا للقاضي شمس الدين السروجي، وأضيف إليه التدريس بالمدرسة الصالحية والناصرية وجامع الحاكم، فقام بعمله خير قيام، فكان حريصًا على تخليص الحقوق، وفصل القضايا، موصوفًا بالنزاهة، لا يقبل لأحد هدية، كثير النفع لأصحابه.

قال عنه الإمام الذهبي: كان صادقًا، قوّالاً بالحق، سديد الأحكام، غير ملتفت لذوي الجاه والسلطان.

وقد أراد سلطان مصر أن يكرم الأمير «بكتمر الساقي» وكان من أعز الأمراء وأقربهم إلى قلب السلطان، فبنى له قصراً فخمًا كبيراً، ثم أراد أن يوسع إسطبل القصر، فضم إليه أرض الميدان الذي أنشأه السلطان كتبغا، وجزءاً من

---

(١) الدرر الكامنة (٥/ ٢٩٠)، البداية والنهاية (١٤/ ١٤٢)، العدالة الاجتماعية في الإسلام صفحة (٣٢٦).

أرض بركة الفيل، وهي أرض لا يملكها السلطان.

وأراد السلطان إصدار حكم بشرعية بناء القصر الذي بناه للأمير بكتمر، وضم إليه أراضي لتوسيع الإسطبل، فرفض القاضي وامتنع، فألح عليه السلطان، فرفض ونهض من المجلس غاضبًا، وترك مجلس السلطان دون أذن منه، وعاد إلىٰ بيته، ولم يستطع أحد إجباره علىٰ ذلك، فقد كان عادلاً، مهيبًا، صارمًا، دينًا رأسًا في الحق.

وكان محبًّا لأهل السنة والجماعة معظمًا لشيخ الإسلام ابن تيمية عارفًا له قدره وفضله وعلمه.

وكان يقول: إن لم يكن ابن تيمية شيخ الإسلام فمن؟!

توفي رحمه الله سنة (٧٢٨) وهو ابن ٧٥ سنة ودفن بالقرافة بمصر.

* * *

القاضي المحاملي[(١)]
تفرغ لسماع الحديث وإسماعه

الحسين بن إسماعيل بن محمد بن إسماعيل المحاملي القاضي الفقيه الشافعي، المحدث، سمع الكثير، وأدرك نحو سبعين رجلاً من أصحاب الإمام الحافظ ابن عيينة، وروىٰ عن جماعة من كبار الأئمة، وروىٰ عنه علماء كبار؛ كالدارقطني وآخرين، وكان يحضر مجلس علمه نحو من عشرة آلاف طالب علم.

كان صدوقًا دينًا، فقيهًا، محدثًا، وَلِيَ قضاء الكوفة ستين سنة، وأضيف إليه قضاء فارس، ولم يشغله القضاء عن التدريس والتعليم، فقد بنىٰ في داره مجلسًا للنظر في الفقه سنة ٢٧٠هـ، وظل العلماء يترددون عليه حتىٰ مات سنة ٣٣٠ هـ عن خمس وتسعين سنة.

وكانت الكوفة بها كثير من الشيعة، وقد تناظر هو وبعض الشيعة، فجعل الشيعي يذكر شجاعة عليٍّ - رضي الله عنه - يوم بدر وأُحُد والخندق وخيبر وحنين، ثم قال للقاضي: أتعرف هذه المواقف؟ فقال القاضي: أعرفها، ولكن أتعرف أنت أين كان الصديق يوم بدر؟ كان مع رسول الله ﷺ يحرسه ويدافع عنه، فأفحم الشيعي، وقال المحاملي: وقد قدمه الصحابة الذين رووا لنا الصلاة والزكاة والوضوء، وإنما قدموه لعلمهم أنه خيرهم، فأفحمه أيضًا.

وظل قاضيًا للكوفة ستين سنة، ثم طلب إعفاءه من القضاء؛ فأعفي، فلزم بيته، وتفرغ لسماع الحديث وإسماعه، حتىٰ توفي سنة ٣٣٠ هـ رحمه الله.

---

(١) البداية والنهاية (١١/ ٢٠٣)، المنتظم من سنة (٢٥٧هـ) (٦/ ٣٢٧).

القاضي ابن شداد [1]
بنى دارًا لتعليم الحديث

أبو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم بن عتبة قاضي حلب، المعروف بابن شداد، الملقب بهاء الدين الفقيه الشافعي الكبير.

ولد سنة ٥٣٢ هـ، وتوفي أبوه وهو صغير؛ فنشأ عند أخواله بني شداد، ونسب إليهم، ولد بالموصل ليلة العاشر من رمضان سنة ٥٣٩هـ.

وحفظ القرآن الكريم في صغره، ولازم الشيخ الحافظ سعدون القرطبي إحدىٰ عشرة سنة، وأخذ عنه القراءات السبع، وقرأ عليه بالطرق السبع، وقراءة القرآن الكريم، ورواية الحديث وشروحه، والتفسير وعلومه، وأجازه سنة ٥٥٨هـ.

سمع «مسند الشافعي»، و«مسند أبي عوانة»، و«مسند أبي يعلى»، و«سنن أبي داود» علىٰ الشيخ الشهرزوري، ورحل إلىٰ الموصل وبغداد لطلب العلم، وسمع من شهدة الكاتبة ببغداد، واستقر فيها، ودرس في مدارسها، وبرع في الفقه وسائر العلوم، وساد أهل زمانه، ونال رياسة الدنيا والدين، وصنف كتبًا كثيرة، ثم رحل إلىٰ الشام، وقابل السلطان صلاح الدين الأيوبي، فأكرمه وقربه، وقلده قضاء العسكر وبيت المقدس.

(١) وفيات الأعيان (٧/ ٨٤).

وبعد وفاة صلاح الدين قلده ابنه الملك الظاهر قضاء حلب والإشـراف على الأوقاف، وأجزل له العطاء، وجمع مالاً كثيراً، ولم يكن له ذرية ولا قرابة، فجمع ماله، وبنى مدرسة، وبنى بجوارها داراً لتعليم الحديث، وبنى بينهما تربة لفقراء المسلمين.

وظل رحمه الله قاضيًا لحلب، ومعلمًا، ومدرسًا، يقصده طلبة العلم من كل مكان، حتى توفي سنة ٦٣٢هـ، وله ثلاثة وتسعون سنة.

* * *

القاضي محمد بن علي الشوكاني (١)
حسنة الزمن، وزينة اليمن

محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني الصنعاني، الإمام الرباني، مفتي الأمة، فريد العصر، ونادرة الدهر، علامة الزمان، ترجمان الحديث والقرآن، قامع المبتدعين، رأس الموحدين.

ولد سنة ١١٧٣هـ في بلدة هجرة شوكان ونشأ في صنعاء، وتربىٰ في رعاية أبيه علىٰ العفاف، والطهارة، وحب العلم، وسماع العلماء الأعلام، وكان بيته بيت علم وفضل، فقد كان أبوه قاضيًا، واستمر في القضاء أربعين سنة، وتوفي سنة ١٢١١هـ بعد أن بلغ ابنه الثامنة والثلاثين، وبعد أن رآه متوليًا للقضاء الأكبر في صنعاء.

وكان والده بارًّا به، رحيمًا عليه، أعانه علىٰ طلب العلم، ولم يسمح له بغير ذلك، وكان في صباه يسأل والده عن أعلم الناس باليمن، فقال له والده: الشيخ عبد القادر بن أحمد هو أعلم علماء اليمن، فسعىٰ إليه الشوكاني، وتتلمذ علىٰ يديه، وقرأ عليه «صحيح مسلم» بكامله مع بعض من شرح النووي، و«سنن أبي داود» بكاملها.

وكان قبل انشغاله بالعلوم الشرعية شغوفًا بمطالعة كتب التاريخ والأدب، فقرأ الكثير منها، ثم شرع في طلب الحديث، والسماع من كبار العلماء، فسمع

(١) البدر الطالع (٢/ ٢١٤).

«البخاري» بكامله على العلامة علي بن إبراهيم، وسمع «صحيح مسلم»، و«سنن الترمذي» بكاملها، وبعض «موطأ مالك»، وبعض «سنن النسائي»، وبعض «سنن ابن ماجه»، وجميع «سنن أبي داود»، وتخريجها للحافظ المنذري، وكذلك سمع شرح «بلوغ المرام»، وبعضًا من شرح «فتح الباري» حتى أصبح إمام الأئمة، وشيخ الرواية والسماعة، عالي الإسناد، السابق في ميدان الاجتهاد على الأكابر الأمجاد.

تفقه على مذهب الإمام زيد، وبرع فيه، وألَّف، وأفتى، وتخلى عن التقليد، وتحلى بالاجتهاد، ونهى عن التقليد المذموم، وألَّف كتاب «السيل الجرار المتدفق على حدائق الأزهار»؛ فغضب عليه المقلدة الجامدون، وألَّف رسالة في ذم التقليد سماها «القول المفيد في حكم التقليد»؛ فغضب عليه بعض العلماء، وثارت من أجله فتنة في صنعاء، ونجاه الله منها.

عمل على نشر السنة، والدعوة لها في مجتمع يسيطر عليه التقليد الأعمى لمذهب الزيدية، وكان شغوفًا بتحصيل العلم ونشره، فكان يلقي في اليوم الواحد نحو ثلاثة عشر درسًا في كل العلوم، وكان يقرأ الكتاب الواحد على عدد من العلماء حتى يستفرغ ما عندهم من علم.

تصدر الإفتاء وهو في العشرين من عمره، وكان لا يأخذ على الفتيا شيئًا، فلما عوتب على ذلك قال: أنا أخذت العلم بلا ثمن، وأريد أن أنفقه كذلك، وعندما بلغ السادسة والثلاثين من عمره توفي قاضي القضاة؛ فعرض عليه الأمير منصب قاضي القضاة، فاعتذر بسبب انشغاله بالعلم والتدريس، فقال الأمير: الجمع بين الأمرين ممكن، فقال الشوكاني: أستخير وأستشير، وما اختاره الله فيه الخير، وانصرف، فألحوا عليه حتى قَبِلَ المنصب سنة ١٢٠٢هـ،

وظل قاضيًا حتى وفاته سنة ١٢٥٠هـ .

لم تشغله الدروس ولا القضاء بين الناس عن تحصيل العلم والتصنيف، فألف كتبًا كثيرة، أشهرها: «نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار»، «القول الصادق في حق الإمام الفاسق»، «الصوارم الهندية المسلولة على الرياض الندية»، «شرح الصدور في تحريم رفع القبور»، «تحفة الذاكرين شرح عدة الحصن الحصين»، وكتبًا كثيرة عالج بها انحرافات المذهب الحاكم، وجميع المذاهب حوله، ونادى بالاجتهاد وعدم التعصب.

❊ ❊ ❊

أبو سالم قاضي المالكية بدمشق[1]
انفروا خفافًا وثقالاً

إبراهيم بن محمد بن علي التادلي، برهان الدين، يكنى «أبا سالم» قاضي المالكية بدمشق، ولد سنة ٧٣٢هـ، وكان جريئًا، مهابًا، يلازم تلاوة القرآن، وكان قوي الإرادة عالي الهمة، مصممًا على الحق في كل الأمور.

تولى قضاء حلب سنة ٧٧١هـ، فقام بعمله خير قيام، فأسند إليه قضاء دمشق سنة ٧٧٨هـ، فعدل، ونصر الحق، وقمع الظالم، وكان لا يخشى إلا الله، جريئًا مهابًا.

توفي سنة ٨٠٣ هـ بعد أن شارك في القتال ضد جيوش تيمورلنك، وقاتل أشد القتال، وأصابته جراحات كثيرة أدت إلى وفاته، وقد جاوز السبعين من عمره.

* * *

(١) إنباء الغمر بأنباء العمر (٢/ ١٥٠).

قاضي حلب موسى بن محمد [1]
كثير الحياء، قليل الشر

موسىٰ بن محمد بن محمد بن أبي بكر بن جمعة الأنصاري، القاضي الشافعي شرف الدين قاضي حلب.

ولد سنة ٧٤٨ هـ، ونشأ في رعاية عمه شهاب الدين خطيب حلب، وأقبل علىٰ العلم بهمة عالية، وأخذ الفقه من الشيخ الأذرعي، ثم رحل إلىٰ دمشق سنة ٧٧٠هـ، وأخذ من علمائها، ثم رحل إلىٰ القاهرة، وأخذ من علمائها؛ مثل: الإسنوي، والمنفلوطي، وغيرهما، وسمع الحديث من محمد بن محمد الأيكي، ثم عاد إلىٰ الشام وقد صار عالمًا فاضلاً، أصاب من كل علم طرفًا جيدًا، وأدمن العلم حتىٰ مهر وبرع، وأفتىٰ ودرَّس، وخطب بجامع حلب، واشتهر، ثم وُلِّيَ القضاء زمن الملك الظاهر.

وعندما اجتمعت الجيوش لقتال جيوش الطاغية تيمورلنك خرج معها، وشارك في القتال ضد جيوش تيمور لنك، وقاتل بشجاعة وبسالة حتىٰ وقع في الأسر، ثم أطلق سراحه هو وجماعة من المسلمين، فتوجه إلىٰ أريحا، ومات بها سنة ٨٠٣ هـ.

كان رحمه الله فاضلاً دينًا، كثير الحياء، قليل الشر، لم يمنعه كبر السن من القتال، فخرج للقتال وهو ابن خمس وخمسين سنة، وقاتل حتىٰ وقع في الأَسْرِ، وقد توفي - رحمه الله - في ثاني عشر رمضان سنة ٨٠٣ هـ.

---

(١) إنباء الغمر بأنباء العمر (٢/ ١٩٥).

قاضي بعلبك موسى بن محمد بن نصر[1]
كان كثير البر بطلبة العلم

موسىٰ بن محمد بن نصر البعلبكي المعروف بابن السقيف، القاضي شرف الدين أبو الفتح، ولد سنة ٧٥٢هـ، وأخذ الفقه عن الخطيب جلال الدين، والحديث عن عماد الدين بن بردس، وغيرهما، وأخذ بدمشق عن ابن الشريشي والزهري وغيرهما، حتىٰ مهر وبرع، وتصدىٰ للإفتاء والتدريس ببلده سنة ٧٨١هـ، ثم تولىٰ قضاء بعلبك، وحسنت سيرته.

وكان كثير البر بطلبة العلم، سليم الباطن، يأمر بالمعروف، وينهىٰ عن المنكر، وله أوراد وعبادة، وانتهت إليه رئاسة الفقه ببلده حتىٰ توفي سنة ٨٢٣هـ.

* * *

(١) إنباء الغمر بأنباء العمر (٣/ ٢٣٥).

محمد بن خليل قاضي حلب[1]
لا أعلم بالشام كلها مثله، ولا بالقاهرة

محمد بن خليل بن هلال بن حسن بن بدر الدين الحاضري الحلبي الحنفي.

ولد سنة ٧٤٧هـ بمدينة حلب، ثم طلب العلم، فرحل إلى دمشق، وأخذ العلم من علمائها، وقرأ «سنن أبي داود»، «وسنن الترمذي» على الشيخ ابن أميلة، ثم توجه إلى القاهرة، وقصد علماءها، وأخذ عن الشيخ ولي الدين المنفلوطي، والشيخ جمال الدين الإسنوي، وعاد إلى بلاده، ثم رحل للقاهرة مرة أخرى، وسمع على الشيخ الشمس العسقلاني إمام الجامع الطولوني، وحفظ كتبًا كثيرة في فنون عديدة، وقرأ على الحافظ العراقي في علوم الحديث، وأجاز له.

وكانت له همة عالية دفعته إلى ملازمة العلم حتى تفرد، وصار علمًا يشار إليه ببلاده، ووَلِيَ قضاء بلده، ودرَّس بها، وأفتى، وقصده الطلبة، فأفاد وأجاد، وكان محمود الطريقة، مشكور السيرة، مكرمًا معظمًا عند الأمراء والعلماء والعوام.

مات في ربيع الأول سنة ٨٢٤هـ، وله سبع وسبعون سنة، وصلى عليه الحافظ ابن حجر العسقلاني صلاة الغائب بالجامع الأزهر.

وقال عنه البرهان محدث حلب: لا أعلم بالشام كلها مثله، ولا بالقاهرة مثل ما اجتمع فيه من العلم الغزير، والتواضع، والدين المتين، والمحافظة على صلاة الجماعة، والذكر، والتلاوة، والانشغال بالعلم.

---

[1] إنباء الغمر بأنباء العمر (٣/ ٢٦٣).

محمد بن عمران الطلحي[1]
قاضي المدينة المنورة

عندما قدم أمير المؤمنين أبو جعفر المنصور الخليفة العباسي الثاني إلى المدينة المنورة استأجر بعض الحمالين لنقل متعلقاته، ولم يوفهم أجورهم كاملة؛ فذهب الحمالون إلى قاضي المدينة المنورة محمد بن عمران الطلحي، وكان لا يخشى في الحق لومة لائم، واشتكوا له أمير المؤمنين، وطالبوا بإنصافهم، واستمع إليهم القاضي، واقتنع بعدالة مطالبهم، وأمر كاتبه أن يكتب للمنصور بالحضور إلى القاضي، وإنصاف الحمالين.

فخاف الكاتب أن يكتب استدعاءً لأمير المؤمنين، وطلب إعفاءه، فرفض القاضي، وكتب الكاتب استدعاءً لأمير المؤمنين، ثم قال للقاضي: أرسل به غيري.

فقال القاضي: والله لا يمضي به غيرك!

فمضى الكاتب إلى أمير المؤمنين أبي جعفر المنصور، وأعطى للحاجب الأمر، فدخل الحاجب على أمير المؤمنين، وأعلمه بطلب القاضي.

فقال المنصور لجلسائه: إني دعيت إلى مجلس القضاء، فلا يأتي أحد معي، ثم ذهب هو والربيع إلى القاضي، فلم يقم لهما، ودعا بالحمالين، وسمع لهم

(١) تاريخ الخلفاء (١/ ٢٦٦).

في حضور الخليفة، وقضى لهم على الخليفة.

فلما فرغ من حكمه قال المنصور: جزاك الله خيراً عن دينك، قد أمرت لك بعشرة آلاف دينار.

* * *

أبو محمد الأكفاني قاضي بغداد [١]
أنفق على طلب العلم مائة ألف دينار

القاضي عبد الله بن محمد بن عبد الله بن إبراهيم، أبو محمد الأسدي المعروف بابن الأكفاني، أحد العلماء الأعلام، أحب العلم وسعى إليه، ولم يبخل بالغالي والنفيس، أنفق ماله وعمره في تحصيل العلم.

قال أبو إسحاق الطبري: من قال: إن أحداً أنفق على العلم مائة ألف دينار غير أبي محمد بن الأكفاني فقد كذب.

ولد سنة ٣٢٠هـ، وظل يتعلم حتى برع ومهر، وتولى قضاء الرصافة ونواحيها سنة ٣٩٠هـ، ثم تولى قضاء جميع بغداد سنة ٣٩٦هـ، وظل قاضياً حتى مات سنة ٤٠٥هـ، وله من العمر خمسة وثمانون عاماً.

* * *

(١) المنتظم من سنة (٢٥٧) (٧/ ٢٣٠).

علاء الدين القونوي[1]
الخلاف في الرأي لا يفسد للود قضية

قاضي القضاة، وشيخ الشيوخ أبو الحسن علي بن إسماعيل بن يوسف القونوي الشافعي، علاء الدين القونوي.

ولد سنة ٦٦٨هـ، وتلقى العلم ببلده، ثم قدم دمشق سنة ٦٩٣ هـ، وهو معدود من الفضلاء، وكان عمره خمسة وعشرين عامًا.

أحب الحديث وعلومه، فسمع من ابن الزملكاني وأبي الفضل بن عساكر وقاضي القضاة ابن دقيق العيد، وغيرهم، وقرأ الأصول على الشيخ تاج الدين الحلافي، وبرع في التفسير والفقه والأصول، وتصدر للتعليم والتدريس، ثم رحل إلى مصر، ودرس بها، وتولى مشيخة الشيوخ بمصر وبدمشق، وظل يفيد الطلبة ويعلمهم حتى طلب للقضاء بدمشق سنة ٧٢٧هـ، فترك القاهرة، ورحل إلى دمشق، فباشر القضاء أحسن مباشرة.

وكان صُلْبًا في الحق، عفيفًا نزيهًا، ولم يكن مقبلاً على الدنيا، بل همه الإقبال على التدريس والتعليم.

وعندما ذهب إلى دمشق أحضر معه كتبه محملة على عشرين جملاً، وكان معظِّمًا لأهل العلم، متواضعًا لهم، وكان يقول: أنا أحب أهل العلم، وأحب أهل الحديث أكثر، وكان يعظم شيخ الإسلام ابن تيمية ويدافع عنه مع أنه كان

---

(١) الدرر الكامنة (٤/ ٣٠).

يخالفه في أمور كثيرة، وكان يكرم تلميذه ابن قيم الجوزية.

وحضر عنده ذات يوم القاضي ابن جملة، فحط من قدر الشيخ ابن تيمية، فقال الشيخ القونوي للحاضرين: هذا ما يفهم كلام الشيخ ابن تيمية.

قال الإسنوي في «الطبقات»: مَلأَ بالرياسة والسيادة أرجاء الشام ومصر، وارتفعت منزلته، وعلا قدره، وكان السلطان الناصر يعظمه ويثني عليه، وكذلك نائب السلطان، حتىٰ إنه كان يقول: ما ملأ عيني غيره، وكان ذلك سببًا في نقله من مصر إلىٰ الشام، فقد حسده بعض الحاسدين علىٰ علو منزلته عند السلطان، واستغلوا فرصة وفاة قاضي دمشق، ورشحوه لقضاء دمشق، فعرض عليه السلطان قضاء دمشق فاعتذر الشيخ القونوي، وقال: إن لي أطفالاً يتأذون من الحركة والركوب، فتبسم السلطان وتلطف، وبسط يديه، وقال: أنا أحملهم علىٰ كفوفي حتىٰ يصلوا إلىٰ الشام، فقبل الشيخ القونوي حياءً من السلطان، فقدم إلىٰ الشام سنة ٧٢٧هـ، فباشر القضاء سنين حتىٰ توفي سنة ٧٢٩هـ.

وكان رحمه الله مهيبًا وقورًا، طاهر اللسان، مثابرًا علىٰ تحصيل الفائدة، ضابطًا متثبتًا، كثير الإنصاف، صالحًا متدينًا.

يبدأ يومه بصلاة الفجر في جماعة، ثم يجلس للتدريس إلىٰ الظهر، ثم يصلي الظهر ويتوجه إلىٰ منزله ويأكل شيئًا، ثم يتوجه إلىٰ زيارة صاحب، أو عيادة مريض، أو سلام علىٰ غائب، أو تهنئة، أو تعزية، أو للشفاعة، أو لقضاء حاجة لأحد المسلمين، ثم ينشغل بذكر الله حتىٰ آخر النهار، وظل كذلك حتىٰ مات سنة ٧٢٩ هـ، وقد تخرج علىٰ يديه علماء كبار.

* * *

نجم الدين ابن صصرى [1]
القاضي المجاهد

قاضي القضاة نجم الدين ابن صصرىٰ ، أبو العباس أحمد بن العدل عماد الدين قاضي قضاة الشام .

ولد سنة ٦٥٥هـ، اجتهد في طلب العلم، وكانت له قوة حافظة كبيرة أعانته علىٰ التفوق ، وأحب الحديث ، وسمع منه السبكي ، والبرازلي ، والإمام الذهبي ، والعلائي ، وخلق كثير .

سمع «وفيات الأعيان» علىٰ القاضي ابن خلكان ، وعلىٰ الشيخ شرف الدين في النحو ، وأخذ الفقه من الشيخ تاج الدين الفزاري ، وتفقه وناظر وأفتىٰ ، وشارك في علوم كثيرة ، وكان يلقي دروسًا طويلة مفيدة .

جلس للتدريس سنة ٦٨٢هـ، وقصده الطلبة رغبة في علمه ، وكان جيد الإنشاء ، حسن العبارة ، ثم تولىٰ قضاء العسكر سنة ٦٩٤هـ، ثم تولىٰ قضاء دمشق سنة ٧٠٢هـ، وأضيفت إليه مشيخة الشيوخ .

وكان معظمًا مكرمًا عند السلطان ، فقد كان وقورًا كريمًا ، جميل الأخلاق دينًا رئيسًا ، كبير القدر ، له حِلْمٌ ومداراة ، لم يقدر أحد أن يدلس عليه في قضية قطُّ .

(١) طبقات الشافعية الكبرىٰ (١/ ٢٤٩) .

وكان رحمه الله محبًّا للخير، حريصًا عليه، كثير التودد لأصحابه، قاضيًا للحقوق؛ من عيادة المرضى، وشهود الجنائز، ومهاداة الأحباب.

وعندما خرج السلطان لفتح ملطية سنة ٧١٥هـ، خرج مع المجاهدين في سبيل الله، وكان عمره ستين عامًا، وشارك في القتال، وتم النصر، وعاد الجيش سالمًا غانمًا، وعاد الشيخ للقضاء، يحكم حتى توفي سنة ٧٢٣هـ، وله ثمانية وسبعون سنة، قضاها طالبًا للعلم، وقاضيًا بالحق، ومجاهدًا في سبيل الله.

* * *

ابن الحرستاني قاضي دمشق(١)
ما رأيت أحدًا أفقه منه

القاضي جمال الدين بن الحرستاني، عبد الصمد بن محمد بن أبي الفضل ابن الحرستاني، كان أبوه من أهل حرستان، فنسب إليها.

ولد سنة ٥٢٠هـ، ونشأ نشأة طيبة، فسمع الحديث، واجتهد في تحصيله، وشارك الحافظ ابن عساكر في كثير من شيوخه، وسمع سنة ٥٧٢ هـ من عبد الكريم بن حمزة، وجمال الإسلام، وطاهر بن سهل الإسفراييني، وكبار العلماء، وحدث وبرع، وأفتى في المذهب الشافعي، وانتهى إليه علو الإسناد، وكان صالحًا عابدًا من قضاة العدل، لا تأخذه في الله لومة لائم، قوّالاً بالحق، عادلاً في أحكامه، تولى قضاء دمشق سنة ٦١٢هـ، وهو ابن اثنين وتسعين سنة، فحكم بالعدل، وقضى بالحق.

قال عنه شيخ الإسلام عز الدين بن عبد السلام: ما رأيت أحدًا أفقه من ابن الحرستاني، كان رحمه الله لا تفوته صلاة الجماعة بالجامع، وظل محافظًا عليها طوال حياته، وعُمِّر دهرًا طويلاً، ثم ترك وظائفه، ولزم بيته وصلاته بالجامع حتى توفي سنة ٦١٤هـ، وله من العمر خمس وتسعون سنة.

* * *

(١) العبر في أخبار من غبر (٥/ ٥٠)، البداية والنهاية (١٣/ ٧٧)، سير أعلام النبلاء (٢٢/ ٨٠).

القاضي ابن الزكي[1]
حلال المشاكل

قاضي القضاة بهاء الدين أبو الفضل الدمشقي الشافعي.

قال عنه الحافظ الذهبي: كان جليلاً، نبيلا، ذكيًا، وافر العلم، بارعًا في الأصول، بصيراً بالفقه، فصيحًا، مُفَوَّهًا، حلاَّلاً للمشاكل، غواصًا على المعاني، سريع الحفظ، قيل: كان يحفظ الورقتين والثلاث من نظرة واحدة.

ولد سنة ٦٤٠هـ ،وبرع في العلم بذكائه المفرط، وقدرته على المناظرة، وحل المعضلات، سمع بمصر من كبار علمائها، وتفقه بأبيه قاضي القضاة أبي المعالي، وأخذ العلوم العقلية عن القاضي كمال الدين التفليسي.

وُلِّيَ القضاء سنة ٦٨٢هـ ، ولم يشغله المنصب عن التدريس، فكان يلقي في اليوم الواحد عدة دروس في مدارس دمشق، وكان يلقي دروسه بعبارات سهلة جزلة، وظل كذلك حتى توفي سنة ٦٨٥هـ، وله خمس وأربعون سنة، وهو عمر قصير لعالم كبير، كريم النفس، كثير المحاسن، مليح الفتوى.

* * *

---

(١) البداية والنهاية (١٣/ ٣٢)، سير أعلام النبلاء (٢١/ ٣٥٨).

قاضي ملطية
الشيخ المجاهد حسام الدين أبو الفضائل [1]

القاضي حسام الدين أبو الفضائل الحسن بن القاضي تاج الدين، أبي المغافر أحمد بن الحسن أنو شروان الرازي الحنفي.

ولد سنة ٦٣١هـ بأقسيس من بلاد الروم في بيت علم وفقه، فأبوه القاضي تاج الدين كان عالمًا، بارعًا، عارفًا، بالمذهب الحنفي.

ولي قضاء ملطية عشرين سنة، ثم قدم دمشق سنة (٦٧٧هـ)، فولي قضاءها مدة، ثم انتقل إلى مصر، فولي قضاءها مدة، ثم عاد للشام مرة أخرى، فتولى القضاء.

وعندما خرج الجيش سنة (٦٩٩هـ) لمقاتلة قازان ملك التتار خرج مع المجاهدين وهو شيخ كبير، قارب السبعين من عمره، واشترك في القتال، ثم لم يعثر عليه أحد بعد القتال، ولم يعرف مصيره أحد، هل قتل؟ هل أسر؟

رحم الله هذا الشيخ العجوز، العالم القاضي، الذي عذره الله بسنه الكبير، وكانت له رخصة، ولكنه أحب ما عند الله، فخرج مجاهداً في سبيل الله بعد أن عاش حياته كلها قاضيًا، فهو لم يولد إلا ليكون قاضيًا.

* * *

(١) البداية والنهاية (١٤/ ١٣)، الدرر الكامنة (٢/ ١٠٩).

ابن البارزي [1]
قاضي حماة وابن قاضيها وأبو قاضيها

الشيخ الإمام العلامة شيخ الإسلام قاضي القضاة شرف الدين أبو القاسم هبة الله ابن القاضي نجم الدين عبد الرحيم ابن القاضي شمس الدين أبي الطاهر المعروف بابن البارزي، كان كريم الأخلاق، حسن الاعتقاد.

ولد سنة ٦٤٥هـ، في الخامس من رمضان في بيت علم وفقه، فأبوه قاضي القضاة، أشرف على تعليمه؛ فنشأ محبًّا للعلم.

وسمع من أبيه، وجده، وابن الكامل، وتفقه بأبيه وجده أيضًا، وأخذ من ابن النديم، ومن الشيخ الإمام ابن عبد السلام، وبرع وفاق أقرانه في الفقه، وعظم قدره، وعلا شأنه.

وباشر قضاء حماة، فأجاد وأفاد، واشتهر أمره؛ فطلب لقضاء الديار المصرية فاعتذر، وظل يدرِّس ويعلم في حماة، وقصده طلبة العلم من كل حدب وصوب، فقد كان بصيراً بالفقه والأصول والأدب، وفيه صدق وتواضع، معظمًا عند الناس، إمامًا راسخًا في العلم.

عمي في آخر عمره، وهو يحكم ويقضي، ولم يمنعه العمى عن الحكم، ولم تفته فريضة ولا نافلة.

توفي بعد أن صلى العشاء والوتر سنة ٧٣٨هـ، وله من العمر ثلاث وتسعون سنة، وكانت وفاته بمدينة تبوك، وحمل إلى المدينة المنورة، ودفن بها.

---

(١) البدر الطالع (٢/ ٣٢٤).

قاضي الحرم الظريف
عبد العزيز بن أحمد(١)

عبد العزيز بن أحمد بن الحسن الجزري قاضي الحرم، وحريم دار الخلافة، وغير ذلك من الجهات توفي سنة (٣٩١هـ).

كان لطيفًا مهذبًا، تحاكم إليه وكيلان، فبكى أحدهما في أثناء الخصومة.

فقال القاضي: أرني وكالتك.

فناوله الوكالة، فقرأها ثم قال للوكيل: لم يوكلك في البكاء عنه.

فخجل الوكيل، وتوقف عن البكاء.

* * *

(١) البداية والنهاية (١١/ ٣٣٠).

القاضي أبو المفاخر[1]
كان آخر كلامه لا إله إلا الله

قاضي القضاة عز الدين أبو المفاخر محمد بن عبد القادر بن عبد الخالق الدمشقي الشافعي، الشهير بابن الصايغ .

ولد سنة ٦٢٨هـ، وسمع من ابن اللتي، وجماعة من كبار العلماء، ولازم القاضي كمال الدين التفليسي حتى صار من كبار أصحابه، وكان عارفًا بالمذهب الشافعي، بارعًا في الأصول والمناظرة .

درَّس العلم لطلبة العلم بالمدرسة الشامية، ثم ولي وكالة بيت المال، ثم ولي قضاء الشام، وكان شهمًا قائمًا بالحق، عزل عن القضاء سنة ٦٧٧هـ، وتفرغ للتدريس، ثم أعيد إلى منصبه سنة ٦٨٠هـ، ودخل في مواجهات مع السلطة حتى خلصه الله منها، وتفرغ للعبادة والتدريس إلى أن توفي في بستانه .

ولما حضرته الوفاة سنة ٦٨٣ هـ جمع أهله، وتوضأ وصلى بهم، ثم قال: هللوا معي، وظل يقول: لا إله إلا الله، ويكررها إلى أن توفي مع قول لا إله إلا الله .

* * *

(١) شذرات الذهب (٣/ ١٢٣) .

سراج الدين البلقيني قاضي دمشق(1) توفرت فيه شروط الاجتهاد كاملة

عمر بن رسلان بن صالح بن شهاب بن عبد الخالق بن عبد الحق السراج البلقيني ثم القاهري الشافعي.

ولد ليلة الجمعة بمدينة بلقينية سنة (٧٢٤هـ)، وحفظ بها القرآن الكريم وهو ابن سبع سنين، والشاطبية، والمحرر، والكافية، والمختصر الأصلي، ثم ذهب إلى القاهرة وهو ابن اثنتي عشرة سنة، وعرض ما حفظه على كبار العلماء كالسبكي، والجلال القزويني، وفاق زملاءه بجودة فهمه، وسرعة حفظه، وذكائه الفائق.

ومما يروى في قوة حفظه: أنه طلب من ناظر المدرسة بيتًا يقيم فيه، فأبى، واتفق مجيء شاعر ألقى قصيدة، فقال البلقيني: قد حفظتها، فتعجب الناظر وقال: إن كنت حفظتها أعطيتك سكنًا، فأعادها البلقيني من حفظه دون خطأ، فأعجب به الناظر، وأعطاه سكنًا، وما زال يطلب العلم من علماء القاهرة حتى برع في جميع الفنون، وفاق الأقران، وجمع الكثير من المعارف، وتفرد بها.

دخل حلب سنة ٧٩٣هـ، وأخذ من علمائها، وأخذوا منه، وعين لقضاء مصر مرات كثيرة، وهو يأبى ويرفض، وتفرغ للعلم حتى شاع ذكره في البلاد، وأحبه العباد، وعظمه الملوك والأمراء، وأثنى عليه أكابر شيوخه، وخضع له العلماء، واعترف بفضله الفقهاء، وتصدر للفتيا والتدريس، وكثرت تلاميذه

---

(١) البدر الطالع (١/ ٥٦)، مأثر الأناقة (٢/ ١٧٤).

حتى صاروا شيوخًا في حياته، وكان يحضر دروسَه علماءُ المذاهب الأربعة، وأجمع العلماء على أنه أحفظ أهل عصره، وأوسعهم معارف، وأكثرهم علومًا.

وقد أثنى عليه كبار العلماء، فقال الحافظ ابن حجر: توفرت شروط الاجتهاد كاملة، وقال ابن حجي: كان أحفظ الناس لمذهب الشافعي في زمانه، وقال له الحافظ ابن كثير: لقد ذكرتنا بابن تيمية، وكذلك قال له شيخ الجبل: مارأيت بعد ابن تيمية أحفظ منك.

وكان رحمه الله محبًا للخير، مهتمًا بأمور المسلمين، تدخل لدى السلطان الملك الأشرف ليقنعه بإلغاء المكوس التي فرضها على بيع العقار، ومازال يحدثه حتى اقتنع، وألغى هذه الضريبة.

وظل يعلِّم ويدرِّس حتى عين لقضاء دمشق، وكان كهلاً، كبير السن، فحكم وعدل، وبهر الناس بعلمه، وجودة معارفه، وأفاد الناس بعلمه حتى توفي سنة ٨٠٥هـ.

❊ ❊ ❊

قاضي عجلون
علي بن سليم بن ربيعة الأذرعي[1]

علي بن سليم بن ربيعة الأذرعي، ضياء الدين، ولد سنة ٦٥٧هـ، واشتغل بالعلم، ونظم التنبيه في ستة عشر ألف بيت.

قال الذهبي: كان محسنًا للأمور، أخذ عن الشيخ تاج الدين، وناب في قضاء دمشق، وتنقل في قضاء نواحيها نحو ستين سنة، ومات سنة ٧٣١هـ، وهو على قضاء مدينة عجلون.

ذكر أن ملك الفرنج أرسل رسولاً إلى طرابلس، فأرسل ملك طرابلس إلى القاضي الأذرعي ليحضر المقابلة، وحان وقت صلاة المغرب، فقام القاضي وصلى بالحاضرين وجهر بالقراءة، فقال له رسول ملك الروم: كيف تجهر وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ﴾ [الإسراء: ١١٠].

فقال الأذرعي: المراد بالنهي الدعاء، ثم قال القاضي له: ولكن ما الحكمة في تعظيم الصليب عندكم؟

قال: لأن المسيح صلب عليه، فقال له القاضي: الحيوان أفضل عندكم أم الجماد؟

فقال: بل الحيوان، فقال القاضي: إذن ينبغي لكم تعظيم الحمار؛ لأن عيسى عليه السلام ركب الحمار، فبهت الكافر.

* * *

(١) الدرر الكامنة (٤/ ٦٣).

القاضي عبد الله بن طالب[1]
الكريم السخي

عبد الله بن طالب بن سفيان بن سالم ابن عم بني غالب ملوك القيروان، ويكنىٰ أبا العباس، ولد سنة ٢١٧هـ.

كان جميل الصورة، بهي الخلق، فاخر اللباس، أحور العينين، كريم النفس، سخي اليد، ولم يكن في زمانه سلطان ولا غيره أسمح منه، وبلغ من كرمه أنه ربما تصدق بلجام دابته أو مصحفه أو ثيابه، وسقط منه سوطه، فناوله له أحد العبيد الرعاة، فاشترىٰ العبد والغنم، وأعتقه ووهب له الغنم.

كان محبًّا للعلم منذ صغره، وتفقه علىٰ الإمام العلامة شيخ المالكية سحنون، وأصبح من كبار أصحابه، ثم رحل إلىٰ مصر، وأخذ من علمائها، ثم حج وعاد إلىٰ بلده.

ولم يكن شيء أحب إليه من المذاكرةِ وطلبِ العلم، وكان فطنًا، جيد الكلام في الفقه، حريصًا علىٰ المناظرة، يجمع في مجلسه بين المختلفين لتظهر الفائدة، فإذا تكلم أجاد وأفاد حتىٰ يود السامع أن لا يسكت.

تولى قضاء القيروان مرتين، وكان عادلاً في قضائه، صارمًا في جميع أمره، فقيهًا ثقة، عالمًا بالخلاف، ورعًا في حكمه، لا يخشىٰ ولا يهاب سلطانًا عند حكمه، وكان كثير الأمر بالمعروف، رقيق القلب، غزير الدمع.

---

(١) الديباج المذهب في أعيان المذهب (١/ ١٣٥)

وكان يقول: العزيز من كان معه القرآن والعلم، هذا هو العزيز، وأما من كان معه عز السلطان فليس بعزيز.

تعرض للبلاء وسجن، فكان يناجي ربه عز وجل في سجوده قائلاً: اللهم إنك تعلم أني ما حكمت بجور، ولا آثرت عليك أحداً من خلقك في حكم من أحكامي، ولا خفت فيك لومة لائم، وسقي سُمًّا؛ فمات في سجنه سنة ٢٧٥هـ، ولم يستمر في الحبس طويلاً، فقد كان يقول أثناء توليته القضاء: اللهم لا تمتني وأنا قاضٍ، فمات بعد عزله بشهر، وله ثمانٍ وخمسون سنة.

* * *

القاضي عيسى بن دينار[1]
صلى الفجر بوضوء العشاء أربعين سنة

عيسى بن دينار فقيه الأندلس وعالمها، كان عالمًا جليل الشأن، عظيم القدر، من أهل الزهد الخالص، والدين الكامل، والورع الصادق، حج مرات كثيرة، ولم يكن في زمانه أفقه منه في المذهب المالكي، وإليه انتهت الرياسة في المذهب، تولى الشورى بقرطبة، وقضاء طليطلة، فكان عادلاً في حكمه، ورعًا في قضائه.

لم تفتنه المناصب، ولم تشغله عن الآخرة، فقد كان رحمه الله ناسكًا، زاهدًا، عابدًا، فاضلاً، مجاب الدعوة، حريصًا على صلاة الجماعة في كل الأوقات، صلى الفجر بوضوء العشاء أربعين سنة، وظل على زهده وورعه حتى توفي سنة ٢١٢هـ، رحمه الله.

* * *

(١) الديباج المذهب في أعيان المذهب (١/ ١٧٨).

القاضي إبراهيم بن إسحاق[1]
القوي الأمين

إبراهيم بن إسحاق بن أبي العنبس ، أبو إسحاق الزهري ، القاضي الكوفي ولي قضاء مدينة المنصور ، وكان ثقة ، خيراً ، فاضلاً ، كيساً ، ديناً ، صالحاً ، جليل القدر ، صالح العلم والعمل ، من أصحاب الحديث .

تولى القضاء سنة ٢٣٥ هـ، **فحكم بالعدل**، وأقام الشرع ، وقمع الظلم ، وكان صُلْبًا في الحق ، لا يخشى إلا الله ، لا يجامل ولا يداهن ، عفيفًا ، قوي العزم .

وقد تعرض للبلاء، فصبر، وفقد منصبه بسبب تمسكه بالحق وقيامه بالشرع ، فقد احتاج أمير المؤمنين الخليفة العباسي الموفق بالله إلى بعض الأموال ، ولم يجد ، فأرسل إلى القاضي يطلب منه أن يدفع إليه أموال الأيتام على سبيل القرض ، فأبى أن يدفعها إليه ، وقال : لا والله ، ولا حبة منها ، فغضب الموفق ، وعزله عن القضاء سنة ٢٥٤ هـ ، فما حزن ولا ندم ؛ فقد أدى ما عليه ، وأرضى ربه .

توفي رحمه الله سنة ٢٧٧هـ ، وله ثلاث وسبعون سنة ، قضى منها تسعة عشر عامًا في القضاء بين الناس بالحق ، ناشرًا العدل والعلم ، ساعيًا لرضا الله عز وجل وإن سخط عليه الناس ، وقد روي عنه أحاديث كثيرة ، فقد كان رحمه الله من أصحاب الحديث .

---

(١) الطبقات السنية في تراجم الحنفية (١/ ٢١٠).

القاضي إبراهيم بن محمد بن عمر[(١)]
كان من قضاة السلف

إبراهيم بن محمد بن عمر المشهور بابن العديم من بيت كبير مشهور بحلب، تحلى أكثر أهله بفضيلتي العلم والرياسة.

ولد في سادس ذي الحجة سنة ٧١١هـ، وأحب العلم منذ صغره، فحفظ القرآن الكريم، ثم درس الفقه، وبرع في المذهب الحنفي، وسمع «صحيح البخاري»، وكان عفيفًا، كثير الوقار والسكون، نظيف اللسان، وافر الفضل، طويل الصمت، كبير القدر عند الملوك والأمراء، وكانت له مكارم كثيرة.

تولى قضاء حلب بعد أبيه، فكان من قضاة السلف، عاقلاً، عادلاً في الحكم، خبيراً بالأحكام، ذكيًا، يستخدم عقله وذكاءه لإظهار الحق، ونصرة المظلوم.

ومن ذلك أنه جلس ذات يوم للقضاء، فحضر عنده رجل، وادعى أن له مالاً عند رجل آخر، فأرسل القاضي إلى الرجل، وأمره بسداد ما عليه، فأنكر الرجل وقال: لم آخذ منه شيئًا.

فأخرج الرجل وثيقة فيها: «أقر سعيد بن علي» فأنكر الرجل وأصر.

فقال القاضي: أليس هذا اسمك واسم أبيك؟

(١) الطبقات السنية في تراجم الحنفية (١/ ٢٧١).

قال الرجل : هذا سعيد غيري ، أنا سعيد بن عرفة ، فسكت القاضي وتشاغل بالحديث مع من كان عنده حتى حضر وقت العلم ، فأمر القارئ أن يقرأ «صحيح البخاري» وهو يشرح وطال المجلس .

وفي أثناء ذلك التفت القاضي إلى الرجل وقال : يابن علي .

فقال المدعى عليه : نعم .

فقال القاضي : ادفع ما عليك وإلا حبستك ، فاستحسن الناس هذه الحيلة التي أجبرت الرجل على الاعتراف بما عليه .

وكان رحمه الله حريصًا على صلاة الجماعة في الجامع كل الأوقات ، توفي سنة ٧٨٧هـ ، وله سبع وسبعون سنة .

* * *

راهب الكوفة
القاضي أحمد بن بديل[1]
هل أنا بالوادي المقدس حتى أخلع نعلي ؟!

أحمد بن بديل بن قريش بن برير بن الحارث قاضي الكوفة ثم همدان كان من أهل العلم والفضل، والورع الصادق، والعمل الصالح، والعلم النافع، كان يسمىٰ راهب الكوفة لكثرة عبادته وتدينه.

عندما أسند إليه قضاء الكوفة حزن وقال : خذلت علىٰ كبر السن، خذلت علىٰ كبر السن !! مع عفته وصيانته، وكان في قضائه عادلاً حكيماً، صادعاً بالحق، لا يخشىٰ كبيراً أو أميراً .

تولى قضاء الكوفة في عهد أمير المؤمنين المعتز بالله، وذات يوم اشترىٰ كبير الأمراء موسىٰ بن بغا بستاناً كبيراً، وبقي جزء من البستان يخص أحد الأيتام، فأرسل الأمير موسىٰ وكيله إلىٰ القاضي ليشتري حصة اليتيم ، فامتنع القاضي وقال: إنه لا يحتاج للمال، ولا حاجة للبيع الآن، فقال الوكيل: إنا نعطيك في حصته ضعف قيمتها، فرفض القاضي، وقال: هو مستغنٍ الآن، وأخشىٰ أن أبيع الآن ثم ترتفع الأسعار، فأكون قد ضيعت حقه، وبذل الوكيل مجهوداً كبيراً مع القاضي وفشل، رغَّبه فلم يستجب، ثم هدده وقال: إنه كبير الأمراء، فلم يهتز القاضي وقال: إن الله تبارك وتعالىٰ يقول: ﴿ **وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ**

---

(١) تاريخ بغداد (٤/ ٤٩).

الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ [الإسراء: ٣٤].

فخجل الوكيل من إلحاحه، وذهب إلى الأمير موسى وقص عليه الخبر، وتلا عليه الآية السابقة؛ فبكى الأمير وظل يكرر الآية، ثم قال للوكيل: لا تتعرض لهذا البستان، وانظر في أمر هذا القاضي الصالح، فإن كانت له حاجة فاقضها.

وروى الخطيب أن أمير المؤمنين المعتز بالله أرسل إلى القاضي أحمد بن بديل، فذهب إليه، فقال الحاجب: يا شيخ، نعليك، فلم يلتفت إليه، ودخل الباب الثاني، فقال الحاجب: يا شيخ، نعليك، فلم يلتفت إليه، ثم دخل الباب الثالث، فقال الحاجب: يا شيخ نعليك، فغضب القاضي وقال: هل أنا بالوادي المقدس حتى أخلع نعليّ؟!

ودخل على أمير المؤمنين، فأكرمه وعظمه وأجلسه بجانبه، وقال: أتعبناك يا أباجعفر، فقال القاضي: أتعبتني وأذعرتني، فكيف بك إذا سئلت عني؟!

فقال أمير المؤمنين: ما أردنا إلا الخير، أردنا سماع العلم، فقال القاضي: ألا جئتني، فإن العلم يؤتى، ثم أملى عليه حديثين:

الأول: «**من استرعى رعية فلم يحطها بالنصيحة حرم الله عليه الجنة**».

والثاني: «**ما من أمير عشرة إلا يؤتى به يوم القيامة مغلولاً**» ثم انصرف إلى بيته وظل زاهدًا، عازفًا عن الدنيا حتى توفي سنة٢٥٨هـ.

* * *

القاضي محمد أبو بكر[1]
صياد السمك

محمد أبو بكر بن إسحاق بن منذر، العالم الورع، والزاهد الصادق، والفقيه البارع.

قال عنه أمير المؤمنين ابن الحكم: هو حافظ مقدم، من أهل المعرفة بالحديث والرجال، وله حظ وافر من الأدب، لم يلِ قضاء قرطبة أفقه منه ولا أعلم إلا منذر بن سعيد البلوطي.

نشأ بقرطبة وسمع من علمائها، ثم رحل سنة ٣٣٢ هـ ؛ لطلب العلم وأداء فريضة الحج، فسمع من علماء مكة المكرمة والمدينة المنورة، ثم رحل إلى مصر، وجالس علماءها، وأخذ منهم، ثم عاد للأندلس، وأقبل على الزهد والعبادة وتحصيل العلم حتى أصبح ماهراً حافظًا للفقه، بصيراً بالاختلاف، عالمًا بالحديث، ضابطًا للرواة، حدث عنه وسمع منه خلق كثير.

ومازال يسعى للعلم بهمة عالية، ونية صادقة، حتى أصبح راسخًا حاذقًا في علوم كثيرة؛ كالفقه والحديث والبلاغة والنحو والفرائض والحساب، وأقبل عليه طلبة العلم من كل مكان.

وكان مع علمه من أهل الزهد والتقشف والبر، كريم الأخلاق، حسن العشرة، كريم النفس، لين الكلمة، متواضعًا، وظل يمتنع من قبول المناصب

(١) الديباج المذهب في أعيان المذهب (١/ ٢٦٠).

حتىٰ سعت إليه، فنال رياسة الدين والدنيا بالأندلس، فما غرته الدنيا، ولا تغير حاله.

وبلغ به التقشف والورع وتحري الحلال إلىٰ أنه كان يصيد السمك بنهر قرطبة ويبيع صيده، فيأخذ من ثمنه ما يقتات به، ويصدق بالباقي.

وقد ولاَّه أمير المؤمنين الشورى، ونظر المظالم، والشرطة، إلىٰ أن توفي قاضي قرطبة الشهير المنذر بن سعيد البلوطي، فولاَّه مكانه سنة ٣٥٦ هـ، فكان نعم الخلف لنعم السلف، وحمد الناس سيرته حتىٰ توفي سنة ٣٦٧هـ، وسنه خمس وستون سنة.

* * *

عيسى بن مسكين[1]
ذلك أفضلنا وأفضلكم

عيسى بن مسكين بن منظور الأفريقي، أصله من العجم، أخذ العلم من شيخ الأندلس وعالمها سحنون وابنه، ورحل إلى الشام ومصر وأخذ من علمائهم.

كان ذا سمت وخشوع، طويل الصمت، فاضلاً، دائم الحمد، رقيق القلب، غزير الدمعة، كثير الإشفاق، بارعًا في علوم الفقه والحديث واللغة، وأسماء الرجال وكُنَاهُم، وقويهم وضعيفهم، فصيحًا، جيد الشعر، كثير الكتب في الفقه والآثار، يشبه أستاذه العلامة ابن سحنون في هيئته وسمته، وبه كان يقتدي في كل أموره وشمائله.

كان ظاهر المروءة، كريم الأخلاق، حسن الأدب، معاديًا لأهل البدع والأهواء، زاهدًا في الدنيا، مقبلاً على الآخرة.

قال الكاشي: أدخلني عيسى بن مسكين إلى بيت مملوء بالكتب، ثم قال لي: كلها رواية، وما فيها كلمة غريبة إلا وأنا أحفظ لها شاهدًا من قول العرب.

وكان أستاذه علامة الأندلس محمد بن سحنون يكرمه ويقدره، وإذا استفتي قال: أفتِ يا أبا موسى، وكان إذا تفاخر أهل الأندلس وأهل العراق

(١) الديباج المذهب في أعيان المذهب (١/ ١٧٩).

برجالهم، قيل لأهل العراق: أفيكم مثل عيسىٰ بن مسكين، فيقول أهل العراق: ذلك أفضلكم وأفضلنا.

عرضت عليه المناصب فرفض وأبى، وعرض عليه القضاء مرات عديدة وهو يرفض في كل مرة، حتىٰ أطال عليه الأمير إبراهيم بن أحمد بن الأغلب، وسأله: ما تقول في رجل قد جمع كل خلال الخير، أردت أن أوليه القضاء، وألمُّ به شعث هذه الأمة، فامتنع ورفض؟

فقال عيسىٰ بن مسكين: يجب عليه الطاعة.

فقال الأمير: فإن امتنع؟

قال عيسىٰ بن مسكين: تجبره علىٰ ذلك.

فقال الأمير: فأنت هو.

فقال عيسي بن مسكين: ما أنا بالذي وصفت، وأخذ يعتذر ويرفض ويمتنع، فأخذ الأمير بثيابه، ووضع السيف قريبًا من نحره، فاستجاب بعد أمر عظيم، وتولىٰ القضاء، وأجمع الناس عليه علىٰ اختلاف مذاهبهم.

* * *

القاضي علاء الدين [١]
وظيفة المفتي أن يحافظ على آخرة السلطان

عالم الخلافة العثمانية، أشرق نجمه، وظهر فضله وعلمه، وسما عزمه، وعلت همته، كان ذا نفس سخية، وأخلاق رضية، محبًّا لفعل الخير، آمرًا بالمعروف، ناهيًا عن المنكر، لا يخشىٰ إلا الله.

تولى منصب المفتي في الدولة العثمانية في عهد السلطان سليم خان [٢] وكان محل تقدير وتكريم؛ لصدقه وأخلاقه وعلمه، وذات يوم أمر السلطان سليم بقتل مائة وخمسين رجلاً من حفاظ الخزائن، وعلم بذلك المفتي علاء الدين علي بن أحمد الجمالي، فذهب إلىٰ الديوان، وسلم علىٰ الوزراء، فأحسنوا استقباله، وأجلسوه في صدر المجلس، وقد تحيروا من سبب مجيئه، ثم قالوا: أي شيء دعا فضيلتكم للحضور إلىٰ الديوان العالي؟

فقال: أريد السلطان في أمر، فعرضوا طلبه علىٰ السلطان سليم، فأذن له وحده، فدخل وسلم وجلس، ثم قال: وظيفة أرباب الفتوىٰ أن يحافظوا علىٰ آخرة السلطان، وقد سمعت أنك أمرت بقتل مائة وخمسين رجلاً، لا يجوز قتلهم شرعًا، فعليك بالعفو عنهم.

فغضب السلطان، وكان صاحب حدة، وقال: إنك تتعرض لأمر السلطان،

---

(١) الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية (١/ ١٧٣)، رجال من التاريخ الجزء (٢).

(٢) السلطان سليم خان فاتح مصر والشام وكان يلقب بـ (ياوز) ومعناها القاطع وهو تاسع ملوك بني عثمان وكان جباراً وكان القتل أهون شيء عنده.

وليس ذلك من وظيفتك.

فقال له: بل أتعرض لأمر آخرتك، وهي من وظيفتي، فإن عفوت فلك النجاة، وإلا فعليك عقاب عظيم، فانكسرت عند ذلك ثورة غضب السلطان، وعفا عن الكل، ثم تحدث مع السلطان ساعة، وعندما هَمَّ بالخروج قال للسلطان: تكلمت معك في أمر آخرتك، وبقي لي كلام يتعلق بالمروءة.

فقال السلطان: وما هو؟

فقال: إن هؤلاء الناس من عمال السلطان، فهل يليق بالسلطان أن يتركهم يتكففون الناس؟

فقال السلطان: لا، فقال له: إذن قررهم في مناصبهم.

فوافق السلطان وقال: إلا أني أعزرهم لتقصيرهم في العمل، فقال المفتي: هذا جائز، ثم سلم وانصرف مشكوراً.

وعندما أراد السلطان سليم السفر إلىٰ «أدرنة»، خرج المفتي لوداعه، فرأىٰ في الطريق أربعمائة رجل مشدودين بالحبال، ويسوقهم الجند، فسأل عن حالهم، فقالوا: إنهم خالفوا أمر السلطان، فحكم عليهم بالإعدام.

فذهب المفتي إلىٰ السلطان وهو راكب فرسه وسط جنوده، وقال له علىٰ ملأ من الناس: لا يحل لك قتل هؤلاء، فقال السلطان: أيها الشيخ، إلىٰ متىٰ تتدخل في أمور الحكم؟! الزم حدَّك، وانشغل بوظيفتك، أما لك وظيفة تقتصر عليها؟! أما لك عمل تعمله؟!

قال المفتي: هذه وظيفتي، وهذا عملي، فإن سمعت نجوت، وإلا لقيت ملكًا هو أقدر عليك منك عليهم، ثم مشىٰ بلا تسليم.

فغضب السلطان، واحمر وجهه من شدة الغضب، وظل مدة طويلة

صامتًا، لا يكلم أحدًا، والناس من حوله خائفون، ثم أفاق من غضبه، واستجاب لنصيحة المفتي، وأمر بالعفو عنهم، ومشىٰ في طريقه.

وعندما وصل السلطان إلىٰ «أدرنة» أرسل أمرًا بتولية الشيخ علاء الدين قضاء العسكر بجانب الفتوىٰ، وقال في خطابه: «وليتك قضاء العسكر بجانب الفتوىٰ؛ لأني تحققت أنك تتكلم بالحق» وزادت منزلته ومحبته عند السلطان.

وكان رحمه الله يصرف جميع أوقاته في التلاوة، والعبادة، والدرس، والفتوى، يصلي الصلوات الخمس بالمسجد جماعة، وكان كريم النفس، طيب الأخلاق، خاشعًا، متواضعًا، يبجل الصغير، ويحترم الكبير، طاهر اللسان، لا يذكر أحدًا بسوء، أعرض عن العز والمال، وزهد في الدنيا صيانة لدينه وعرضه، وعاش حياته صادعًا بالحق، ناشرًا للعدل، فأعزه الله، ورفع شأنه، وأخضع له سلاطين الدنيا.

* * *

القاضي إبراهيم بن خليل باشا[1]
رئيس الوزراء
كان يطعم كل يوم ستمائة من الفقراء

إبراهيم بن خليل باشا بن إبراهيم بن خليل الرومي من بيت علم ورياسة، كان أبوه وزيراً للسلطان مراد خان، وكان جده الأعلى خليل أول من ولي قضاء العسكر في الدولة العثمانية.

تولى قضاء «أدرنة» في عهد السلطان محمد الفاتح، ثم قضاء «أماسية»، وبعد وفاة السلطان محمد الفاتح تولى السلطنة ابنه السلطان بايزيد، وفوض لإبراهيم قضاء العسكر، فوض إليه الوزارة العظمى[2]، وارتفع شأنه، وعظم قدره، وكانت سيرته في القضاء والوزارة سيرة محمودة، وطريقته طريقة مشكورة، وكان كريم النفس، جواد الكف، يطعم كل يوم ستمائة من الفقراء، تغمده الله برحمته.

* * *

(١) الطبقات السنية في تراجم الحنفية (١/ ٢٢٢)، الشقائق النعمانية لعلماء الدولة العثمانية (١/ ٣١٠).

(٢) منصب يعادل رئيس الوزراء في الوقت الحالي.

القاضي أحمد بن إسماعيل الكوراني[1]
مؤدب السلطان محمد
عرضت عليه الوزارة فأبى

الإمام العلامة، بحر العلوم، وشمس الفهوم، القاضي العادل، والعالم الزاهد، أحمد بن إسماعيل بن عثمان، شهاب الدين الكوراني الشافعي ثم الحنفي.

ولد سنة ٨١٣ هـ بقرية من ضواحي كوران، وأخذ العلم من شيوخ بلدته، ثم رحل لطلب العلم، فأخذ من علماء ديار بكر والعراق، ثم رحل إلى دمشق سنة ٨٣٠ هـ، فأخذ من علمائها، ومن علماء بيت المقدس، ثم طلب الزيادة، فرحل إلى القاهرة سنة ٨٣٥ هـ، ولازم كبار العلماء، وحضر مجالسهم، وقرأ بها القراءات العشر، وأخذ «صحيح البخاري» من شيخ الإسلام الحافظ ابن حجر العسقلاني، وسمع «صحيح مسلم» على الشيخ الشرواني، وبرع في النحو، وعلم المعاني والبيان والعروض، والفقه والحديث والتفسير، ثم عاد إلى الديار الرومية وقد صار راسخًا في سائر العلوم والفنون، وجلس للتدريس والتعليم، فقصده الناس من كل حدب وصوب، واشتهر علمه، وعلا ذكره، وعرف بالبراعة والطلاقة والجرأة الزائدة.

سمع به السلطان مراد خان، فأكرمه وعظمه وقربه، وجعله مؤدبًا لولده

---

(١) البدر الطالع (١/ ٣٩)، الشقائق النعمانية لعلماء الدولة العثمانية (١/ ١٤٣ ـ ١٥١)، الطبقات السنية في تراجم الحنفية (١/ ٣٢٢).

محمد، فقام بالمهمة خير قيام، ولما توفي السلطان مراد تولى ابنه محمد الملك، وعرض على الشيخ أحمد الوزارة، فأبى ولم يقبل، وقال:

إن ببابك كثيراً من الرجال يخدمونك لينالوا الوزارة في آخر أمرهم، فإذا كان الوزير من غيرهم تتغير خواطرهم، ويختل أمر السلطنة، فأعجبه الرد، وعرض عليه قضاء العسكر فقبله، وباشره أحسن المباشرة، وقرب أهل الفضل، وأبعد أهل الجهل.

ثم ولاَّه السلطان قضاء «بروسة» وولاية الأوقاف بها، فلم يزل قائمًا بالحق، ناشراً للعدل، مساويًا بين الخصوم، والناس عنده سواسية، لا فرق بين كبير وصغير أمام الشرع، ولا يخشى في الحق إلا الله، وكانت تأتيه المراسيم من السلطان، فإن وجدها مطابقة للشرع أجازها، وإن وجدها مخالفة للشرع مزقها.

وذات يوم ورد عليه مرسوم مخالف للشرع فحرقه، وعزَّر من أتى به، فلما بلغ السلطان ذلك عزله عن القضاء، ووقع بينهما تنافر ووحشة، ورحل الكوراني إلى الديار المصرية تسبقه شهرته وعلمه وفضله.

وكان سلطان مصر حين ذاك الملك الأشرف قايتباي، فأكرمه وقدره وعظمه، وظل عنده مدة معظمًا مكرمًا، ثم إن السلطان محمد ندم على ما فعل بحق شيخه وأستاذه، فقد كان منه بمنزلة الوالد، فأرسل إلى ملك مصر يلتمس منه إرساله إليه، وعرض ملك مصر الأمر على الشيخ أحمد، ثم قال له: لا تذهب إليه، فإني أكرمك فوق ما يكرمك، فقال له الشيخ أحمد: نعم أعرف ذلك، إلا أن بيني وبينه محبة أكيدة، كما بين الوالد وابنه، وما وقع بيننا من تنافر لا يزيلها، وهو يعرف أني أميل إليه وأحبه، فإذا امتنعت من الذهاب إليه يظن أن المنع من جانبك؛ فتقع بينكما عداوة، فاستحسن السلطان قايتباي رده،

وجهزه للسفر، وأرسل معه هدايا عظيمة للسلطان، ووهب له مالاً كثيراً.

فلما وصل إلى الديار الرومية أكرمه السلطان محمد غاية الإكرام، وفوض إليه قضاء بروسة، ثم فوض إليه منصب الفتوى بالديار الرومية، وبنى جامعًا ومدرسة لتعليم الحديث الشريف، وعاش في نعمة وافرة، وإكرام زائد.

وصنف أثناء ذلك بعض الكتب المفيدة مثل: «غاية الأماني في تفسير السبع المثاني» أورد فيه مؤاخذات على العلاَّمتين الزمخشري والبيضاوي، وصنف شرح البخاري سماه: «الكوثر الجاري على رياض البخاري» وكثيراً من المؤلفات النافعة، ولم ينس نصيبه من الآخرة، فكانت أوقاته كلها مشغولة في التدريس والفتوى، وكان يختم القرآن في أكثر لياليه، يبتدي فيه بعد صلاة العشاء الآخرة، ويختمه عند طلوع الفجر.

وكان مع حبه للسلطان وقربه منه وإكرامه له لا يذهب للسلطان إلا إذا أرسل إليه، وكان يحذره ويعظمه، ويقول: عليك بالاحتياط حتى لا يكون مطعمك حرامًا، وملبسك حرامًا، وكان يخاطب السلطان باسمه، ولا ينحني له، ولا يقبل يده، ويسلم عليه السلام الشرعي.

وظل على حاله من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مكرمًا من الكبير، محبوبًا من الصغير، ناصحًا للسلطان بما يصلح الدنيا والآخرة حتى توفي سنة ٨٩٣ هـ بمدينة القسطنطينية ودفن بها.

* * *

الحافظ العراقي[1]
قاضي المدينة المنورة

الإمام الأوحد، العلامة الحجة، عمدة الأنام، وحافظ الإسلام، فريد دهره، ووحيد عصره، فاق بالحفظ أقرانه.

ولد سنة ٧٢٥ هـ بمنشأة المهراني على شاطئ النيل المبارك، توفي والده وهو في الثالثة من عمره، وتركه في رعاية أمه، فأحسنت إليه، وشجعته على طلب العلم، فحفظ القرآن الكريم وله من العمر ثماني سنين، وانشغل بطلب العلم، وكان أول ما طلبه من العلم في القراءات والعربية، وانهمك في علم القراءات حتى رغبه قاضي القضاة عز الدين بن جماعة في علم الحديث، وكان ذلك سنة ٧٤٢ هـ، وشرح الله صدره لهذا العلم الشريف، فأقبل عليه بكل جوارحه، وفرغ له وقته، وقضى فيه عمره، ولم تمضِ سنة من عمره إلا وهو مسافر لطلب العلم، أو مسافر للحج.

سافر إلى أربعين بلد لطلب العلم وسماع الحديث، حتى غلب عليه، وصار لا يُعرف إلا به، وتفرد في هذا العلم مع وجود شيوخه، وقال شيخه العز بن جماعة قاضي القضاة بمصر: كل من يدعي الحديث بالديار المصرية فهو مدعٍ، وقال الحافظ تقي الدين بن رفع: ما في القاهرة محدث إلا العراقي، وقد ساعده على النبوغ في علم الحديث همة عالية، ورغبة صادقة في تحصيل العلم، وقوة ذاكرة، وسرعة حفظ تمكنه من حفظ أربعمائة سطر في اليوم الواحد.

---

(١) ذيل تذكرة الحفاظ (١/ ٢٢١-٢٢٦-٣٨٠)، البدر الطالع (١/ ٣٥٤).

تولى قضاء المدينة المنورة سنة٧٨٨ هـ ، وظل بها ثلاث سنوات ، ثم عاوده حنينه للعلم ، فترك القضاء وعاد للقاهرة ، وفرغ نفسه للعلم والتعليم ، وقصده العلماء ، والفضلاء ، وطلبة العلم من كل مكان ، وكتب عنه كثير من الأئمة الأعلام والحفاظ الكبار؛ كالحافظ ابن حجر الذي لازمه وأصبح أشهر تلاميذه .

كان رحمه الله صالحًا ، خيِّرًا ، ديِّنًا ، عفيفًا ، صيِّنًا ، متواضعًا ، كريم الأخلاق ، كثير الوقار ، قليل الكلام ، كثير الحياء ، واسع الصدر ، طويل الروح ، لا يغضب إلا للشرع ، وإذا قام في أمر لا يرده عنه أحد ، ولا يقوم شيء دونه ، لايهاب سلطانًا ولا أميرًا في قول الحق وإن كان مرًّا ، حكيمًا : يتشدد في موضع الشدة ، ويلين في موضع اللين ، جميل الصورة ، منور الشيبة ، شديد الاهتمام بالطهارة ، ولا يعتمد إلا على نفسه ، كثير العبادة .

قال تلميذه الحافظ ابن حجر العسقلاني: لازمته مدة ، فلم أره ترك قيام الليل ، ولا ترك صيام ثلاثة أيام من كل شهر ، وقد رزق السعادة في ولده ، فإنه صار إمامًا ، عالمًا ، وأصبح قاضي القضاة ، ورزق السعادة في رفيقه الهيثمي ، فإنه كان حافظًا كبيرًا ، ورزق السعادة في تلاميذه ، فإن منهم حافظ المشارق والمغارب ، حامل لواء السنة الإمام العلامة ابن حجر العسقلاني .

وكان يبدأ يومه بصلاة الفجر ، ثم يظل في مكانه يذكر الله حتى ترتفع الشمس ، فيصلي الضحى ، ثم يجلس للسماع والتدريس والتأليف ، وأملى أربعمائة وستة عشر مجلسًا للحديث .

استسقى به أهل مصر ، فصلى بهم ، وخطبهم خطبة بليغة ، فرأوا البركة بعد ذلك ، ولم تطل حياته بعدها ، فقد توفي سنة ٨٠٦ هـ .

وترك مؤلفات كثيرة نافعة؛ منها:

- الألفية في علم الحديث وشرحها.

- شرح سنن الترمذي في تسعة مجلدات ولم يكتمل.

- تخريج أحاديث إحياء علوم الدين.

وكثير من المؤلفات النافعة تدل على سعة علمه، وعلو كعبه، وصدق همته، فقد عاش حياته طالبًا للعلم من المهد إلى اللحد، حتى أصبح عالم الحديث، وحامل السنة في زمانه.

* * *

الفيروزآبادي(١)
قاضي قضاة اليمن
لم يدخل بلدا إلا أكرمه أميرها وأحبه أهلها

اللغوي الشهير، والعالم الكبير الشيخ: محمد بن يعقوب بن محمد بن إبراهيم بن عمر الشيرازي، مجد الدين أبو الطاهر الفيروزآبادي، صاحب «القاموس المحيط» الذي طار صيته في كل مكان، وشاع ذكره على كل لسان.

ولد سنة ٧٢٩ هـ بقرية «كازرون» من ضواحي «شيراز» ببلاد فارس، وكان والده من علماء اللغة والأدب المعروفين، فأحسن تعليمه، وظهرت عليه أمارات النبوغ منذ صغره، فحفظ القرآن الكريم وهو ابن سبع سنين، وجود الخط، ونقل كتابين من كتب اللغة العربية وهو صغير.

وفي السنة الثامنة من عمره انتقل إلى مدينة شيراز، وسمع «صحيح البخاري»، و«جامع الترمذي» على علمائها، وظل بها حتى عام ٧٤٥ هـ حيث دفعه حبه ونهمه للعلم إلى ترك وطنه، فخرج ميممًا وجهه شطر الفحول من العلماء في شتى أقطار الأرض، فرحل إلى العراق، ودخل مدينة «وسط» وقرأ بها القراءات العشر على الشهاب أحمد الديواني.

ثم دخل بغداد، فأخذ من علمائها، وظل يجالس العلماء ويستفيد منهم حتى عام ٧٥٥ هـ، فترك العراق وتوجه إلى دمشق، فأخذ من علمائها

(١) البدر الطالع (٢/ ٢٨٠).

ومحدثيها؛ كقاضي القضاة تقي الدين السبكي، ومسند دمشق محمد بن الخباز، والعلامة ابن القيم.

ثم رحل إلى بعلبك وحماة والقدس وحلب، وسمع من علماء هذه المدن، ثم استقر في بيت المقدس نحو عشر سنين، ودرَّس بها، وكثر الأخذ عنه، وتتلمذ على يديه جماعة من الأكابر، وظهرت فضائله.

ثم دخل القاهرة وأخذ العلم من قاضيها الشهير العز بن جماعة، والإسنوي، ثم رحل إلى مكة للحج، وسمع بها من الشيخ اليافعي، وغيره، ثم رحل لطلب العلم في البلاد الشرقية والشمالية، فدخل بلاد الروم والهند، وقابل جمعًا من العلماء والفقهاء، وحمل عنهم علمًا كثيراً.

ثم دخل اليمن سنة ٧٩٦ هـ، وقد سبقته شهرته وفضله وعلمه، فأكرمه الملك الأشرف إسماعيل ملك اليمن، وولاَّه قضاء اليمن كله، وأحبه وعظمه، وسمع عليه السلطان «صحيح البخاري» سنة ٧٩٨ هـ، ثم تزوج السلطان من ابنته؛ فازداد المجد قربًا وحبًّا، وعلت مكانته، وكان السلطان لا يطيق البعد عنه، وكان يقول له: فراق الدنيا أهون عليَّ من فراقك.

واستمر مقيمًا في اليمن عشرين سنة، ينشر العلم، وكثر الانتفاع به، وقصده طلاب العلم من مشارق الأرض ومغاربها، وأقبلت عليه الدنيا، واقتنى كتبًا نفيسة، كان لا يسافر إلا وصحبته عدة أحمال من الكتب يقرأ فيها أثناء السفر، وإذا أملق باعها.

وأكثر من المجاورة بمكة المكرمة والمدينة المنورة، وبنى مدرسة للحديث في مكة المكرمة، وكذلك في المدينة المنورة، وكان محبًّا للعلم وأهله.

وقد صنف كتبًا كثيرة نافعة ومفيدة؛ أشهرها على الإطلاق «القاموس المحيط» وهو المعجم الذي طار صيته في كل مكان، وشاع ذكره على كل لسان، وطبقت شهرته الآفاق، وتلقاه بالقبول العلماء الحذاق، وهو جدير بذلك؛ لأنه جمع من المزايا ما جعله كالإمام بين المعاجم، وأصبح المعول عليه، والمرجوع إليه.

وظل يجلس للتدريس والتعليم حتى توفي سنة ٨١٧ هـ، وقد ناهز التسعين، وقد متعه الله بسمعه وبصره رغم كبر سنه، وحزن عليه الناس حزنًا شديداً، فقد كان محبوبًا في كل مكان، ولم يدخل بلداً إلا أحبه أهلها، وأكرمه أميرها، وأعانه على ذلك كثرة معارفه، وتنوع ثقافته، وكان يقول عن نفسه: ما كنت أنام حتى أحفظ مائتي سطر.

* * *

القاضي سحنون[1]
لم يل قضاء أفريقيا مثله

عبد السلام بن سعيد بن سحنون، أصله من حمص بالشام، ثم استقرت أسرته بالأندلس، وسحنون لقبه، كان ثقة، حافظًا للعلم، فقيهًا بارعًا، وورعًا صادقًا، زاهدًا في الدنيا، موصوفًا بالعقل والديانة والورع، مشهورًا بالجود والبذل، وافر الحرمة، عديم النظير، لم يلِ قضاء أفريقيا مثله.

ولد سنة ١٦٠ هـ، وشرح الله صدره للعلم منذ صغره، وأحب مجالس العلماء، وأخذ العلم من مشايخ القيروان، وطلب المزيد، فرحل إلىٰ تونس سنة ١٨٨هـ وهو ابن ثمانية عشر عامًا، فسمع من علمائها، ثم طلب المزيد، فرحل إلىٰ الشرق للحج وطلب العلم.

وسمع من كبار العلماء؛ كسفيان بن عيينة، ووكيع بن الجراح، وأبي داود الطيالسي، وطائفة من كبار المحدثين، ولازم كبار الفقهاء حتىٰ صار من نظرائهم، وفاقهم، وساد أهل المغرب في المذهب المالكي، وصنف «المدونة» وعليها يعتمد أهل المغرب في الفقه المالكي.

وكان العلم في صدره محفوظًا كما يحفظ سورة من القرآن الكريم، وجلس للتدريس، فمالت إليه الوجوه، وأحبته القلوب، وقصده طلاب العلم من الشرق والغرب، وصار تلاميذه مصابيح العلم في كل بلد.

---

(١) سير أعلام النبلاء (١٢/ ٦٣)، الديباج المذهب في أعيان المذهب (١/ ١٣٥ - ١٦٥).

وقال عنه سليمان بن سالم : رأيت علماء مصر والمدينة المنورة ومكة المكرمة ، فما رأيت مثل سحنون وابنه بعده ، وقال عنه القاضي عيسىٰ بن مسكين : سحنون زاهد هذه الأمة ، وقال ابن وضاح : ما رأيت في الفقه مثل سحنون ، وقال عنه ابن القاسم بن حارث : اجتمع لسحنون نشر مذهب مالك ، واجتمع له مع ذلك فضل الدين والعقل والورع والعفاف ، فبارك الله فيه للمسلمين ، وقال ابن عجلون : ما بورك لأحد بعد أصحاب رسول الله ﷺ ما بورك لسحنون في تلاميذه وأصحابه ، إنهم كانوا بكل أمة ، ينشرون العلم ويحملون الخير .

أقبلت عليه الدنيا فلم تفسده، فكان زاهداً متواضعًا رحيمًا ، إذا مرض خادمه خرج إلىٰ حقله وعلىٰ كتفه محراث ، وبين يديه زوج من البقر ، ويظل يعمل في حقله حتىٰ يشفىٰ خادمه ، وكان كريمًا مع أصحابه ، يصل الرجل من إخوانه بالثلاثين ديناراً ، وذات يوم باع زيتونًا بثماني مائة دينار ، وفرق ثمنه صدقة .

وكان يقول لطلبة العلم: من لم يعمل بعلمه لم ينفعه العلم ، بل يضره ، وإنما العلم نور يضعه الله في القلوب ، فإذا عمل به نور قلبه ، وإن لم يعمل به وأحب الدنيا أعمىٰ حب الدنيا قلبه ، ولم ينوره العلم ، وينصحهم بالورع وطلب الحلال قائلاً : ترك فلس مما حرم الله أفضل من سبعين ألف حجة ، وكان يقول : نعم المطية الدنيا فارتحلوها ؛ فإنها تبلغكم الآخرة .

وكان بجانب علمه وزهده خاشع القلب ، رقيق القلب ، غزير الدمع ، إذا قُرِئَ عليه «الزهد» لابن منبه سالت دموعه .

تولى قضاء أفريقيا وسنه حينٰ ذاك أربع وسبعون سنة، فحزن ودخل علىٰ ابنته خديجة ، وكانت من خيار النساء ، فقال لها : اليوم ذُبِحَ أبوك بغير سكين ،

وعندما عوتب في ذلك قال: مازلت في القضاء منذ أربعين سنة، وهل الفتية إلا القضاء.

واشترط عليهم ألا يقبل أجراً ولا صلة من السلطان على قضائه، ويأخذ لأعوانه وكتابه، وقام بعمله خير القيام، ونظم القضاء، وحكم بالعدل، ونطق بالصدق، ونصر المظلوم، وقمع الظالم، وفرض النظام والاحترام في مجلسه، وكان يضرب الخصوم إذا آذى بعضهم بعضًا بكلام، أو تعرضوا للشهود، ويقول: إذا تُعُرِّضَ للشهود، كيف يشهدون؟! ويؤدب الخصم إن طعن على الشاهد بعيب أو تجريح.

وكان إذا دخل عليه شاهد وخاف منه أعرض عنه حتى يستأنس ويذهب خوفه، فإن طال ذلك به هوَّن عليه، وقال له: ليس معي سوط أو عصا، ولا بأس عليك، قل ما علمت، ودع ما لم تعلم، وكان يؤدب الناس على حلفانهم بالطلاق حتى لا يحلفوا بغير الله، وكان يؤدب الناس على غش السلع، ويُبْعِدُ من الأسواق من يفعل ذلك، وكان لا يحضر عنده إلا الخصمين ومن يشهد بينهما، في دعواهما، وسائر الناس عنه بمعزل، لا يراهم ولا يسمع كلامهم ولا ينشغل بأمرهم، وكان يقول: إذا تردد الرجل على القاضي ثلاث مرات بغير حاجة فلا تجوز شهادته؛ لأن التردد على القاضي من غير حاجة يكسب الرجل مكانة عند الناس ومنزلة، ويكرمونه ويهادونه لما يتوهمون من منزلته عند القاضي بسبب تردده على القاضي، فيصير تردده على القاضي سببًا لأكل مال الناس بالباطل.

وكان رحمه الله لا يخشى إلا الله، فعندما تأخرت مرتبات من يعملون معه ذهب للأمير، وقال له: حبست أرزاق أعواني، وهم أجراؤك، وقد وفوك عملك، ولا يحل لك ذلك، وقد قال رسول الله ﷺ: **«أعطوا الأجير**

حقه قبل أن يجف عرقه»، وعندما رأى الناس يقبلون يدَ ابن الأغلب أمير البلاد قال له: لِمَ تعطيهم يدك؟ لو كان هذا لأجل قربك من الجنة ما سبقونا إليه.

وظل على هذا الحال الصالح، يعلم ويقضي بين الناس بالحق، حتى توفي سنة ٢٤٠ هـ، وله ثمانون سنة، وقد اجتمعت فيه خلال قلما تجتمع في غيره: الفقه البارع، والورع الصادق، والصرامة في الحق، والزهد في الدنيا، والاقتصاد في الملبس والمطعم، والسماحة والكرم، فكان يعطي صاحبه بالثلاثين ديناراً، وكان لا يقبل من أحد شيئًا، ولم يكن يهاب سلطانًا في الحق، شديدًا على أهل البدع.



بحر العلوم وشمس الفهوم
قاضي القضاة ابن حجر العسقلاني[(١)]

شيخ الإسلام في زمانه، وحامل لواء السنة في أوانه، إمام الحفاظ، وشيخ الرواة، وأمير المحدثين، قاضي قضاة مصر، وعالمها، وحافظها، وشاعرها، شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن نور الدين علي بن محمد بن محمد بن أحمد ابن حجر، المصري المولد والمنشأ والدار، العسقلاني الأصل، الشافعي المذهب.

ولد سنة ٧٧٣ هـ بمصر، ونشأ يتيمًا، فقد ماتت أمه وهو صغير، ثم توفي والده بعدها سنة ٧٧٥ هـ، وتولى رعايته أحد أقاربه، فنشأ في غاية العفة والصيانة، ولم تعرف له صبوة أو زلة، وعندما بلغ خمس سنوات دخل الكُتَّاب، وأتم حفظ القرآن وله تسع سنين، وكان آية في سرعة الحفظ رغم صغر سنه، فقد كان يحفظ كل يوم نصف حزب، وحفظ سورة مريم في يوم واحد.

حج سنة ٧٨٥ هـ وكان عمره اثني عشر عامًا، وجاور بمكة حتى أتى رمضان، فصلى بالناس صلاة التراويح بمكة، وسمع من علمائها، وسمع فيها «صحيح البخاري» على مسند الحجاز العفيف النشاوري، وهو أول شيخ سمع له الحديث.

---

(١) البدر الطالع (١/ ٨٧)، النجوم الزاهرة في أخبار ملوك مصر والقاهرة (١٥/ ٥٣٣)، ذيل تذكرة الحفاظ (١/ ٣٠٠).

واشتغل بالعلم، وحبب إليه النظر في التواريخ، وأيام الناس حتىٰ مهر، وأعانه ذلك علىٰ معرفة الرجال، وأحوال الرواة، فصنف هذه الكتب القيمة في «تراجم الرجال وأعيان الزمان»، و«الإصابة في تمييز الصحابة» وغيرها من الكتب المفيدة، ولم يقتصر ابن حجر علىٰ شيوخ عصره بالقاهرة، بل سافر لطلب العلم إلىٰ قوص، وغيرها من بلاد الصعيد، ثم رحل إلىٰ الإسكندرية ثم عاد إلىٰ القاهرة وقد استوفىٰ حظه من علماء الديار المصرية.

ثم حبب إليه علم الحديث، وأقبل عليه بكل جوارحه، فرحل لطلب الحديث سنة ٧٩٢هـ، فسمع من علماء الحجاز، ثم توجه إلىٰ اليمن، وقابل بها كثيراً من العلماء والحفاظ، منهم شيخ اللغويين الفيروزآبادي، وظل بها مدة، ثم رحل إلىٰ الشام، فسمع من علماء دمشق والرملة والخليل وبيت المقدس، ثم عاد للقاهرة، وقد اتسعت روايته، وزادت معارفه، وظهرت فضائله، ثم رحل لليمن للمرة الثانية سنة ٨٠٦هـ، وغرقت المركب، ونجا بعد جهد جهيد، ووصل إلىٰ اليمن، وسمع من علمائها ثم ذهب إلىٰ مكة المكرمة فحج، ثم عاد للديار المصرية وقد اجتمع له ما لم يجتمع لغيره، وأدرك من الشيوخ الكبار جماعة، كل واحد منهم رأس في علمه الذي اشتهر به؛ فالإمام التنوخي في معرفة القراءات، وشيخ الإسلام البلقيني في الفقه، وابن الملقن في كثرة تصانيفه، والفيروزآبادي شيخ اللغويين وصاحب «القاموس المحيط»، وفي الحديث كان أستاذه العالم الشهير الحافظ العراقي سيد المحدثين في عصره، وقد لازمه ابن حجر مدة طويلة، وأصبح من أشهر تلاميذه.

استقر ابن حجر بالقاهرة وجلس للإقراء والتدريس، وانتهت إليه رياسة علم الحديث في عصره، وبهر الناس بعلمه وسرعة فهمه، وغزارة حفظه، وشدت إليه رحال الطالبين للعلم، وقصده الأئمة والفضلاء، وشهد له بالحفظ والإتقان القريب والبعيد، والعدو والصديق، وقصر نفسه وجهده علىٰ

علم الحديث ونشره، وأعانه الله علىٰ ذلك حتىٰ بلغ الغاية القصوىٰ، وأصبح إمام عصره.

وتولى التدريس بمدارس مصر ومساجدها، ومن علو همته وصدق عزيمته أنه قرأ «صحيح البخاري» في عشرة مجالس من بعد صلاة الظهر إلىٰ العصر، و«صحيح مسلم» في خمسة مجالس، و«النسائي» في عشرة مجالس، كل مجلس قريب من أربع ساعات، ومن مروياته: «صحيح البخاري»، و«صحيح مسلم»، و«مسند الشافعي»، و«مسند الدارمي»، و«مسند أحمد»، و«مسند الطيالسي»، و«مسند الشهاب للقضاعي»، و«الموطأ»، و«مسند مسدد»، و«سنن أبي داود»، و«سنن النسائي»، و«السنن الكبرىٰ للنسائي»، و«سنن ابن ماجه»، و«سنن البيهقي»، و«سنن الدارقطني»، و«جامع الترمذي»، و«صحيح ابن خزيمة»، و«صحيح ابن حبان»، و«الأدب المفرد للبخاري»، و«الأدب للبيهقي»، و«المعجم الأوسط للطبراني»، و«المعجم الصغير للطبراني»، و«المستخرج» علىٰ صحيح مسلم لأبي نعيم، و«اختلاف الحديث للشافعي».

تصدى للتأليف والتصنيف منذ عهد مبكر من حياته، سنة٧٩٦هـ، وقد زادت مصنفاته عن مائة وخمسين مصنفًا، وانتشرت كتبه في أنحاء العالم الإسلامي، وكان أعظم كتبه وأجلها «فتح الباري شرح صحيح البخاري»، وشرع في تأليفه أوائل سنة ٨١٧ هـ، واستمر في تأليفه ربع قرن، واستعان فيه بنوابغ العلماء من تلاميذه إلىٰ أن انتهىٰ منه في غرة رجب سنة ٨٤٢ هـ، وكان يومًا مشهودًا، حضر فيه العلماء والفقهاء والمحدثون والقضاة والأمراء والفضلاء، وفرق عليهم الذهب، وأنفق علىٰ هذه الوليمة خمسمائة دينار، وهو كتاب لم يصنف مثله في الأولين، ولا في الآخرين، وكانت الملوك

تتهادىٰ به .

وعرض عليه الملك المؤيد قضاء الشام بكامله فأبىٰ ، وامتنع ، وعرض عليه الملك الأشرف برسباي قضاء الديار المصرية فرفض ، فألحوا عليه حتىٰ قَبِلَ منصب قاضي القضاة سنة ٨٢٧ هـ ، وقد ندم علىٰ قبوله القضاء ، وقال : لقد جنيت علىٰ نفسي ، وزهد فيه وكرهه ، حتىٰ قال : لم يبق في بدني شعرة تقبل اسم القضاء بسبب ما تعرض له من المحن والشدائد ، فقد كان ـ رحمه الله ـ قوّالاً بالحق ، حاكمًا بالعدل ، لا يخشىٰ كبيراً أو صغيراً في الحق ، ورد مظالم كثيرة إلىٰ أهلها ، وأنصف المظلومين من الظالمين ، ولم يعجب ذلك أهل السلطة ، وبالغوا في لومه لرفضه أوامرهم وصدهم ، ومازال يسعىٰ ويطلب إعفاءه حتىٰ أجيب إلىٰ طلبه عام ٨٥٢هـ بعد أن ظل قاضي القضاة إحدىٰ وعشرين سنة .

وكما فاق الناس بعلمه فاقهم بأخلاقه، فقد كان كريم الأخلاق ، مليح الشكل ، منور الشيبة ، يحسن إلىٰ من يسيء إليه ، ويتجاوز علىٰ من قدر عليه ، حلو المحاضرة ، عذب المذاكرة ، مع وقار وأبهة ، وعقل وافر ، وحلم زائد ، ودراية بالأحكام ، مع كثرة الصوم ، ولزوم العبادة ، وفعل الخير ، وكثرة الصدقات .

يصفه تلميذه اليافعي في رحلة من رحلاته، وكان الإمام قد جاوز الثالثة والستين من عمره فيقول: لازمته حضراً وسفراً ، فرأيت الغرائب ، وتعجبت من قوة صبره علىٰ شدائد السفر ، يركب الخيل مرة ، والهجين مرة أخرىٰ ، وإذا نزل الناس للراحة والنوم كان الإمام يجلس للكتابة والمطالعة ، ولا يقطع قيام ثلث الليل الأخير مع مشقة السفر .

ومن غريب ما قيل في علو همته وصدق عزيمته أنه قرأ في رحلته للشام

«المعجم الصغير» للطبراني في مجلس واحد، وكانت مدة إقامته بالشام شهرين وثلثًا، قرأ فيها على طلبة العلم ما يقرب من مائة مصنف غير تعاليقه وشروحه عليها، وأملى مائة مجلس للحديث أو أزيد.

وقد حكي عنه أنه شرب ماء زمزم ليصل إلى مرتبة الحافظ الكبير الإمام الذهبي في الحفظ؛ فاستجاب الله له، فبلغ مرتبة الذهبي، وزاد عليها، ولما حضرت الحافظ العراقي الوفاةُ قيل له: من تخلف بعدك في الحديث؟ قال: ابن حجر، ثم ابني أبا زرعة، ثم الهيثمي.

وفي عام ٨٥٢ هـ انطفأ السراج ومات أمير المحدثين، حافظ المشارق والمغارب، عالم السنة وإمامها، بحر العلوم، وشمس الفهوم، شيخ الإسلام وعمدة المحققين، إمام الحفاظ وكبيرهم، طبيب الحديث، العارف بالعلل، وكان لموته وقع عظيم على المسلمين في كل مكان، فقد كان عديم النظير، ولم يخلف بعده مثله شرقًا ولا غربًا، ولا رأى هو مثل نفسه(*).

هيهات أن يأتي الزمان بمثله ... إن الزمان بمثله لبخيل

عقم النساء فما يلدن شبيهه ... إن النساء بمثله لعقيم

وقد خرج لوداعه خلق لا يحصى، وكان من حملة نعشه السلطانُ، وكبار الأمراء وسادات العلماء، وقد سقط المطر على نعشه، فقال الشهاب المنصوري:

قد بكت السحب على قاضي القضاة بالمطر

وانهدم الركن الذي كان مشيدًا من حجر

* * *

جُمَيْعُ بن حاضر الباجي[1]
لقد خرجنا مجاهدين، ولم نخرج فاتحين

عندما فتح قتيبة بن مسلم مدينة سمرقند فتحها بشيء من الحيلة والغدر، فلما كانت خلافة الأمير العادل عمر بن عبد العزيز رفع إليه أهل سمرقند شكوىٰ يدعون فيها أن قتيبة فتح بلدهم غدراً، فكتب عمر بن عبد العزيز إلىٰ سليمان بن أبي السري وَالِي سمرقند: «إن أهل سمرقند قد شكوا إليَّ ظلمًا أصابهم من قتيبة، فإذا أتاك كتابي فأجلس لهم القاضي، فلينظر في أمرهم، فإن قضىٰ لهم فأخرجوا المسلمين من المدينة كما كانوا من قبل أن يظهر عليهم قتيبة.

وجلس للحكم بينهم القاضي جُميع بن حاضر الباجي، واستمع لأهل سمرقند، فقالوا: إن قتيبة قد هجم علينا دون أن يعرض علينا الإسلام أو القتال أو الجزية، ثم استمع لقائد الجيش الإسلامي، فقال: كانت أرضهم خصبة واسعة، وخشي قتيبة إن هو أنذرهم أن يتحصنوا، والحرب خدعة.

تُرىٰ بما يحكم القاضي المسلم وقد تبين له أن قادة الجيش خالفوا تعاليم القتال في الإسلام وهجموا علىٰ المدينة دون أن يخيروها بين الإسلام أو القتال أو الجزية، هل يحكم بتوقيع العقاب علىٰ قادة الجيش لمخالفتهم قواعد القتال في الإسلام؟ هل يأمر بدفع تعويض مناسب لأهل سمرقند؟ هل تأخذه العزة بالإثم ويصدر حكمًا بمعاقبة أهل سمرقند لأنهم قدموا شكوىٰ ضد الفاتحين؟

---

(١) فتوح البلدان (١/ ٤١١)، رجال من التاريخ الجزء الثاني.

هل قال إن الفتح تم منذ فترة طويلة وأصبح واقعًا يستحيل تغييره؟

لقد استمع القاضي المسلم إلى الطرف الكافر والطرف المسلم، ثم أصدر حكمًا يفخر به القضاء الإسلامي على كل قضاء الدنيا في السابق واللاحق، أصدر حكمًا ببطلان الفتح وخروج الجيش الإسلامي من سمرقند، ثم يخير أهل سمرقند بين الإسلام أو القتال أو الجزية، ثم قال: «لقد خرجنا مجاهدين في سبيل الله، ولم نخرج فاتحين للبلاد».

ولم يعترض قائد الجيش، ولم يقل إن ظروف الحرب والمصلحة العليا للدولة تفرض عدم مغادرة المدينة، لم يقل إنك تعرض الجيش للخطر، لم يعترض وأصدر أوامره للجيش الإسلامي بمغادرة سمرقند على وجه السرعة، وشرع الجيش في الخروج من سمرقند، ووقف أهل سمرقند مذهولين، مبهورين، مشدوهين، هل ما يحدث حقيقة؟ هل هؤلاء بشر أم ملائكة؟ ثم أفاقوا على الحقيقة الناصعة الساطعة، وأسرعوا يطالبون بوقف الانسحاب بعدما عرفوا عدالة الإسلام، ورأى أهل سمرقند ما لا مثيل له في تاريخ البشرية من عدالة ينفذها القاضي على جيش بلده.

واجتمع أهل الرأي، وكبار القوم من أهل سمرقند، وقالوا: هذه أمة حكمها رحمة ونعمة، ودخل أغلبهم في دين الإسلام.

رحم الله هذا القاضي المسلم العادل الذي أصدر حكمًا لم ير التاريخ مثله، ولن يُرَىٰ إلا على يد المسلمين، وكان الحق عنده أحب إليه من نفسه وبلده، فحكم وعدل، فكان عدله سببًا لدخول معظم أهل سمرقند في الإسلام.

* * *

القاضي المحدث
أبو عبد الرحمن النسائي[١]

الإمام الحافظ شيخ الإسلام أبو عبد الرحمن أحمد بن علي شعيب بن علي ابن بحر بن سنان بن دينار النسائي صاحب سنن النسائي .

ولد سنة ٢١٥هـ في بلدة نساء بأقليم خراسان وطلب العلم منذ صغره ورحل لطلب العلم وهو ابن ١٥ سنة فسمع من العالم الشهير قتيبة بن سعد سنة ٢٣٠هـ ومكث عنده سنة وشهرين وأخذ منه الحديث وكان أول شيوخه ثم أخذ العلم من كبار العلماء أمثال إسحاق بن راهويه والحارث بن مسكين وأبي داود السجستاني وسيد المحدثين وأستاذهم محمد بن إسماعيل البخاري ورحل إلىٰ الآفاق والأقاليم فسمع علماء خراسان والحجاز ومصر والعراق والجزيرة والشام والثغور ثم استقر بمصر وقد أصبح من بحور العلم مع الفهم والإتقان والبصر ونقد الرجال وحسن التأليف وقد اعترف له مشايخ مصر وعلماؤها بالتقدم والإمامة والفضل والزعامة .

وشدت إليه الرحال وقصده طلاب العلم من كل مكان وتتلمذ علىٰ يديه كبار العلماء أمثال : الإمام أبي القاسم الطبراني والإمام أبي جعفر الطحاوي والحافظ أبي بكر أحمد بن إسحاق وغيرهم وروىٰ عنه خلق كثيرون ولم يشغله التدريس عن التأليف فقد ألف كتبًا كثيرة أشهرها كتاب «السنن الكبرىٰ» وأهداه إلىٰ أمير الرملة فقال له : أكل ما في هذا صحيح .

فقال النسائي : لا .

---

(١) سير أعلام النبلاء (١٤/ ١٢٥) طبقات الشافعية الكبرىٰ (٣/ ٢١٥) وفيات الأعيان (١/ ٧٨) .

ثم اختصره النسائي وسماه: «المجتبىٰ» وهو أقل السنن حديثًا ضعيفًا ودرجته في الحديث بعد الصحيحين وهو مقدم علىٰ سنن أبي داود وسنن الترمذي لأنه يمتاز عنهما بشدة تحريه عن الرجال وفحصه الشديد عن أحوال الرواة وشرط النسائي في «المجتبىٰ» هو أقوىٰ الشروط بعد الصحيحين مما جعله عظيمًا في نظر أهل العلم وقد تلقاه العلماء بالقبول والفرح والسرور.

فقال الحافظ الذهبي: إن النسائي أحفظ من مسلم صاحب الصحيح وإن سننه أقل السنن حديثًا ضعيفًا.

وقال ابن منده، وابن السكن، وأبو علي النيسابوري، والخطيب البغدادي، والدارقطني: كل ما في النسائي صحيح وفي هذا مبالغة.

وقال الدارقطني: كان أبو بكر بن الحداد كثير الحديث ولم يرو عن أحد سوىٰ النسائي وقال: رضيت به حجة فيما بيني وبين الله عز وجل.

وقال ابن يونس: كان النسائي إمامًا في الحديث ثقة ثبتًا حافظًا.

وقال الحاكم: كلام النسائي علىٰ فقه الحديث كثير ومن نظر في «سننه» تحير من حسن كلامه.

وكان رحمه الله كما قال ابن الأثير: ورعًا متحريًا للحلال وبلغ من صدق ورعه أنه حدثت بينه وبين أستاذه الحارث بن مسكين جفوة فكان النسائي يذهب إلىٰ مجلس الحارث بن مسكين متخفيًا في زاوية بحيث يسمع صوته ولا يراه أستاذه فكان لشدة ورعه وتحريه للصدق إذا روىٰ عن أستاذه شيئًا في سننه يقول: هكذا قرئ عليه وأنا أسمع ولا يقول في الرواية عنه حدثنا وأخبرنا كما يقول في رواياته عن مشايخه.

وكان رحمه الله قوي الجسد جميل الوجه أحمر اللون كالورد في غاية الحسن كأنه قنديل وكان له من النساء أربع ومع هذا كان يجتهد في العبادة

بالليل والنهار مواظبًا على الحج والجهاد في سبيل الله يصوم يومًا ويفطر يومًا.

وما زال أمره في اشتهار وعلمه في ازدهار حتى أصبح أفقه مشايخ مصر في عصره وأعرفهم بالصحيح من السقيم من الآثار وأعرفهم بالرجال إمامًا في الحديث بلا مدافعة ولكل نعمة نقمة فقد كثر حساده فخرج من مصر سنة ٣٠٢هـ وتوجه إلى الرملة بالشام فوجد الناس يقدمون معاوية على علي رضي الله عنهما فألف كتاب «الخصائص» في فضل علي وآل البيت رجاء أن يهديهم الله إلى الحق ولكن بعض السفهاء الجهلاء تعرضوا له في الجامع وسألوه عن فضل معاوية فأمسك فضربوه في الجامع ضربًا شديدًا أتلفه فقال أخرجوني إلى مكة فأخرجوه وهو عليل فمات سنة ٣٠٣هـ بمكة مقتولاً شهيدًا بعد أن رزقه الله فضائل كثيرة.

فقد كان رحمه الله من أعلام الدين وأحد الأئمة الحافظين وركنًا من أركان الحديث ، حاذقًا متضلعًا متفننًا بلغ القمة ومارس المعضلات فانقادت إليه وساد أهل عصره وتقدمهم فكان عمدتهم وقدوتهم جمع بين العلم والعمل فكما كان عالمًا كبيرًا كان قاضيًا عادلاً فقد تولى القضاء بمصر والشام فحمدت سيرته وأحبه الناس لعدله وفضله، لم تشغله الدنيا عن الدين فقد تزوج أربع نسوة وكان يصوم يومًا ويفطر يومًا مواظبًا على العبادة في الليل والنهار متابعًا للحج والجهاد لا يخشى في الحق لومة لائم سئل عن فضل علي ومعاوية رضي الله عنهما فقدم عليًّا رضي الله عنه وهو الأحق وتحمل ما تحمل من إهانات وضرب وهو شيخ كبير ابن ٨٨سنة، كان بإمكانه المداهنة أو التورية أو السكوت ولكنه صدع بالحق وتحمل الثمن وكان الثمن حياته فقد ضرب رحمه الله ضربًا شديدًا، أدى إلى وفاته رحمه الله شهيدًا سعيدًا حميدًا وهذه مكرمة من الله أن رزقه الله الشهادة في آخر عمره، فعاش سعيدًا ومات شهيدًا.

❊ ❊ ❊

ابن عبد البر قاضي لشبونة[١] لم يكن بالأندلس مثله

الإمام العلامة، حافظ المغرب، شيخ الإسلام، أبو عمر يوسف بن عبد الله ابن محمد بن عبد البر القرطبي المالكي صاحب التصانيف الفائقة.

ولد والإمام يخطب يوم الجمعة شهر ربيع الآخر سنة ٣٦٨ هـ بقرطبة وكان والد الإمام أبي محمد فقيهًا عالمًا وعابدًا متهجدًا من أهل الأدب البارع والبلاغة، ولم يتمتع ابن عبد البر بعلم أبيه لأنه مات سنة ٣٨٠هـ وتركه صغيراً ابن ١٢ سنة.

وكان ابن عبد البر محبًا للعلم كوالده فطلب العلم بعد سنة ٣٩٠هـ فجال في غرب الأندلس مدة ثم تحول إلى شرق الأندلس مدة أخرى وأخذ العلم من كبار العلماء فسمع سنن أبي داود و«الناسخ والمنسوخ» لأبي داود و«مسند أحمد» والموطأ وكتاب «المشكل» لابن قتيبة ومسند الحميدي وسمع «المدونة» في الفقه المالكي ومازال ينهل من العلم بهمة عالية ونية صادقة وتفنن وبرع براعة فاق فيها من تقدمه من رجال الأندلس وأصبح إمام عصره وأوحد دهره، أعلم أهل الأندلس في الحديث والسنن والآثار وما يتعلق بها من علوم الحديث والرجال، عالم بالقراءات وبالخلاف بين العلماء وكان مع تقدمه وبراعته في الفقه والحديث له دراية بعلم الأنساب.

---

(١) سير أعلام النبلاء (١٨/ ١٥٣) شذرات الذهب (٢/ ٣١٤)، الديباج المذهب في أعيان المذهب (١/ ٣٥٧) وفيات الأعيان (٧/ ٦٦).

وطال عمره واشتهر علمه وعلا سنده وتكاثر عليه طلاب العلم من كل مكان فجلس ودرَّس وأفاد وصنف الكتب الحسان وسارت بكتبه الركبان وخضع لعلمه علماء الزمان ومن نظر في مؤلفاته بان له سعة علمه وقوة فهمه وألف في «الموطأ» كتبًا مفيدة سبق فيها من تقدم من رجال الأندلس منها: «التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد» وهو كتاب لم يتقدمه أحد إلىٰ مثله وهو سبعون جزءًا وأشهر كتبه: «الاستيعاب لما في تراجم الأصحاب».

علم بفضله وعلمه وورعه الملك ابن الأفطس ملك لشبونة فأسند إليه قضاء لشبونة فحكم وعدل ونصر المظلوم وقهر الظالم وعَلّم الجاهل وظل كذلك يقضي ويعلم حتىٰ قال عنه قاضي القضاة أبو الوليد الباجي: لم يكن بالأندلس مثل ابن عبد البر في الحديث وهو أحفظ أهل المغرب.

وكان رحمه الله ينشد الحق ولا يتقيد بمذهب فقد كان أولاً ظاهري المذهب ثم تحول إلىٰ الفقه المالكي مع ميل إلىٰ فقه الشافعي في بعض المسائل ولا ينكر ذلك عليه فإنه ممن بلغ رتبة الأئمة المجتهدين، وكان محبًّا لأهل لعلم متواضعًا لهم فكان ينبسط إلىٰ الإمام ابن حزم الظاهري ويؤانسه وعنه أخذ ابن حزم فن الحديث.

توفي رحمه الله سنة ٤٦٣هـ وهو ابن ٩٥سنة وهو لا شك عمر طويل قضاه في محراب العلم معلمًا للخير وكان رحمه الله صاحب سنة واتباع إمامًا ثقة دينًا متبحرًا في العلوم.

* * *

محمد بن الحُبلي قاضي برقة[١]
قدَّم أمرَ الرحيم الرحمن وأخر أمر السلطان

الإمام الشهيد محمد بن الحُبَلي قاضي مدينة برقة كان من أعيان الفقهاء وسادات العلماء ورعًا، صالحًا، صادقًا قاضيًا بالعدل لا يخشى إلا الله قدم أمر الرحيم الرحمن وآخر أمر السلطان.

أتاه أمير برقة وقال له: غدًا العيد، فقال القاضي: حتى نرى الهلال ولا أفطّر الناس وأتحمل إثمهم.

فقال الأمير: لقد جاءت أوامر من الخليفة بأن غدًا هو العيد وكان مذهب الدولة العبيدية الاعتماد على الفلك والحساب ولا يعتبرون برؤية الهلال.

فلما أتى المساء لم يظهر الهلال ومع ذلك نفذ الأمير تعليمات السلطان وأعرض عن تعليمات الرحيم الرحمن وقال غدًا العيد.

وفي الصباح خرج الأمير وأمر القاضي بالخروج للصلاة فقال القاضي: لا أخرج ولا أصلي.

فأمر الأمير أحد أعوانه بصلاة العيد بدلاً من القاضي وكتب بما حدث للمنصور فغضب المنصور[٢] وأرسل يستدعي القاضي فذهب إليه فقال

---

(١) سير أعلام النبلاء (١٥/ ٣٧٥).

(٢) المنصور من خلفاء الدولة الفاطمية العبيدية وهي دولة أنشأها المهدي بن عبيد الله سنة ٢٩٦ واعلنوا الرفض وأبطنوا مذهب الإسماعيلية وهم زنادقة أسوأ من الخوارج وقد ذكر المقريزي في كتابه الشهير «اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا» الجزء الثاني صفحة (٢١) أشياء غريبة =

المنصور: ارجع عما قلت وأعفو عنك أو العذاب حتى الموت.

وكان رد القاضي سريعًا حاسمًا قاطعًا: لن أتراجع عما قلت، وأصر على قوله.

فأمر السلطان بصلبه على خشبة وتركوه في الشمس المحرقة والحر الشديد فكان رحمه الله يستغيث من شدة العطش فلم يسق وتركوه حتى مات رحمه الله بعد أن أرضى الرحمن وأغضب السلطان وقدم روحه رخيصة في سبيل الله وتحمل العذاب الشديد حتى مات شهيداً حميداً فلعنة الله على الظالمين فقد أفسدوا عليه دنياه وأفسد عليهم آخرتهم.

* * *

= وأمور عجيبة منها:

١ ـ أن شهر رجب سنة ٣٩٦هـ استهل بيوم الأربعاء فصدر أمر الخليفة بتأريخه بيوم الثلاثاء.

٢ ـ في شعبان سنة ٤٠١ هـ صدرت الأوامر السلطانية بأن يكون الصوم يوم الجمعة والعيد يوم الأحد.

٣ ـ استهل شعبان سنة ٤٠٢ يوم الاثنين فأمر الخليفة بأن يكون أول الشهر يوم الثلاثاء.

عمران بن حصين قاضي البصرة[١]
كانت الملائكة تسلم عليه

الصحابي الجليل عمران بن حصين بن خلف أبو نجيد الخزاعي. أسلم هو وأبو هريرة رضي الله عنهما عام خيبر ومنذ وضع يمينه في يمين الرسول ﷺ أصبحت يده اليمنىٰ موضع تكريم كبير ولا يستخدمها إلا في كل عمل طيب وكريم وكان يقول: ما مسست ذكري بيميني منذ بايعت بها رسول الله ﷺ.

غزا مع النبي ﷺ غزوات كثيرة وجاهد معه المشركين حتىٰ أتم الله نعمته ونصر حزب الإسلام وخذل حزب الشيطان ودخل الناس في دين الله أفواجًا.

وفي خلافة أمير المؤمنين «عمر بن الخطاب» رضي الله عنه أرسله الخليفة إلىٰ البصرة ليفقههم ويعلمهم الدين. وفي البصرة حط رحاله واستقر بها حتىٰ مات وظل يعلم الناس وينشر الخير والإسلام في البصرة حتىٰ أحبه أهلها وشهد له بالفضل علماؤها فقال الحسن البصري سيد التابعين وابن سيرين: ما قدم البصرة راكب خير منه وقد كانت الملائكة تسلم عليه فلما اكتوىٰ انقطع عنه سلامهم ثم عادوا قبل موته بقليل فكانوا يسلمون عليه رضي الله عنه.

وتصدىٰ رضي الله عنه لأهل البدع والأهواء فقد أخرج البيهقي بسنده عن شبيب بن أبي فضالة المكي أن عمران بن حصين رضي الله عنه ذكر الشفاعة فقال رجل من القوم: يا أبا نجيد، إنكم تحدثوننا بأحاديث لم نجد

(١) البداية والنهاية (٦/ ٨) سير أعلام النبلاء (٢/ ٥١٠).

لها أصلاً في القرآن .

فغضب عمران وقال للرجل : قرأت القرآن؟ قال الرجل : نعم .

قال عمران : فهل وجدت فيه صلاة العشاء أربعًا ووجدت المغرب ثلاثًا ، والظهر أربعًا والعصر أربعًا؟قال الرجل : لا .

فقال عمران : فعن من أخذت ذلك؟ ألستم عنا أخذتموه وأخذناه عن رسول الله ﷺ!

أوجدتم في القرآن من كل أربعين شاة شاة؟ قال الرجل : لا .

فقال عمران رضي الله عنه فعن من أخذتم ذلك؟ ألستم أخذتموه عنا وأخذناه عن رسول الله ﷺ؟! أما سمعتم قوله تعالىٰ ﴿ **وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا** ﴾ [الحشر :٧] ؟! فبهت الرجل[١] .

وكان رحمه الله ممن اعتزل الفتنة وكان يقول : لأن أرعىٰ أعنزًا في رأس جبل حتىٰ يدركني الموت أحب إلي من أن أرمي بسهم في أحد الفريقين .

وكان يوصي من يلقاه من المسلمين قائلاً : الزم مسجدك ، فإن دُخِل عليك مسجدك فالزم بيتك ، فإن دخل عليك بيتك من يريد نفسك ومالك فقاتله[٢] .

وقد تولىٰ قضاء البصرة سنة ٤٥هـ زمن معاوية بن أبي سفيان وظل يقضي بالحق ويحكم بالعدل حتىٰ قضىٰ علىٰ رجل بقضية فقال له الرجل : والله قضيت علي بجور وما عدلت .

فقال عمران بن حصين رضي الله عنه : كيف؟

---

(١) مجلة التوحيد ربيع الآخر ١٤٢٥هـ

(٢) رجال حول الرسول خالد محمد خالد

فقال الرجل: شهد علي شاهد زور.

فعوضه عمران من ماله ثم قال: والله لا أجلس مجلسي هذا أبدًا وطلب إعفاءه من القضاء فأعفي.

تعرض للبلاء في بدنه فقد أصابه مرض ثلاثين سنة فصبر وشكر وعرضوا عليه الكي وهو يرفض ويأبىٰ وظل صابراً شاكراً حتىٰ كان قبل وفاته بسنتين اشتد عليه المرض فاكتوىٰ فانقطع عنه سلام الملائكة ثم عادوا قبل موته بقليل فكانوا يسلمون عليه.

توفي رحمه الله سنة ٥٢هـ ولما احتضر قال: إذا مت فشدوني علىٰ سريري فإذا رجعتم من دفني فانحروا وأطعموا[١].

* * *

(١) وصايا العلماء عند حضور الموت (١/ ٦٧).

سليمان بن حرب قاضي مكة المكرمة[1]
كان يحضر مجلس علمه أربعون ألف رجل

سليمان بن حرب بن بجيل، الإمام الثقة الحافظ، شيخ الإسلام أبو أيوب البصري.

ولد سنة ١٤٠ هـ وطلب العلم من كبار العلماء وحدث عن شعبة وحوشب ابن عقيل وقال عن نفسه: طلبت الحديث سنة ١٥٨ هـ وجالست شعبة حتى مات فلما مات جالست حماد بن زيد تسع عشرة سنة حتى مات وما زال يتعلم حتى صار من علماء البصرة المعدودين المشهورين بالعلم والورع.

وذات يوم سئل أمير المؤمنين المأمون عن علماء البصرة فذكروا له علماءها وشيوخها ومنهم سليمان بن جرب وقالوا عنه: هو ثقة حافظ للحديث، عالم عاقل في غاية الستر والصيانة والعفاف، فطلب المأمون أن يراه، فلما حضر كان بمجلس المأمون كبار رجال الدولة وكرهوا أن يدخل مثله على هؤلاء الصفوة. فلما علم المأمون بحضوره أذن له فدخل وسلم فرد عليه المأمون ورحب به. فقال أحد الحاضرين: يا أمير المؤمنين نسأل الشيخ عن مسألة.

فنظر المأمون إلى الشيخ وخيره إن شاء سمح له بالسؤال وإن شاء لم يسمح له. فقال سليمان: يا أمير المؤمنين حدثنا حماد بن زياد قال: قال رجل لابن شبرمة: أسألك، فقال: إن كانت مسألتك لا تضحك الجليس ولا تزري بالمسئول فسل. وحدثنا وهيب قال: قال إياس بن معاوية من المسائل ما لا

(١) سير أعلام النبلاء (١٠/ ٣٣٠).

ينبغي للسائل أن يسأل عنها ولا للمجيب أن يجيب فيها.

فإن كانت مسألته غير هذا فليسأل، وإن كانت من هذا فليمسك فهابوه وما نطق واحد منهم.

وكان رحمه الله ورعًا عفيفًا جاءه رجل وقال له: إن مولاك فلانًا قد مات وخلف عشرين ألف درهم، فقال: فلان أقرب إليه مني والمال له وليس لي.

وكان رحمه الله جبلاً من جبال العلم وإمامًا من الأئمة ظهر له نحو من عشرة آلاف حديث وعنه أبو حاتم: لقد حضرت مجلس علم سليمان بن حرب ببغداد فحزروا من حضر مجلسه أربعين ألف رجل وكان مجلسه عند قصر المأمون وبنى له شبه منبر فصعد سليمان عليه وحضر القواد والأمراء والعلماء وطلبة العلم والمأمون ينظر إليه من فوق قصره فسئل عن حديث حوشب بن عقيل فقام سليمان وقال: حدثنا حوشب بن عقيل وذكر الحديث والناس تقول: لا نسمع فكرر الحديث عشر مرات وهم يقولون: لا نسمع فقام مستملي ومستمليان وثلاثة وهم يقولون لا نسمع، فطلب أن يحضر هارون المستملي وكان صوته كالرعد فحضر وجلس المستملون كلهم وحدث سليمان ابن حرب فأجاد وأفاد.

ولاه المأمون قضاء مكة المكرمة سنة ٢١٤هـ فتوجه إلى بيت الله الحرام وظل يدرس ويعلم وينشر الخير ويقضي بالحق حتى توفي رحمه الله سنة ٢٢٤هـ.

* * *

القاضي عماد الدين الأصفهاني[1]

إمام البلغاء وشمس الشعراء

القاضي الإمام العلامة المفتي الفقيه والكاتب البليغ عماد الدين أبو عبد الله محمد بن محمد بن حامد بن محمد الكاتب الشهير ويعرف بابن أخي العزيز.

ولد سنة ٥١٩هـ بأصبهان وأقبل على العلم بهمة عالية ونية صادقة قدم بغداد وسمع من كبار علمائها في كل المعارف والفنون فأخذ الفقه على أبي منصور سعيد بن الرزاز وأتقن العربية والبلاغة والإنشاء وساد أهل زمانه في الترسل وعاد إلى أصبهان مكبًّا على العلم حتى اشتهر ذكره وعلا أمره وصنف التصانيف الكثيرة وكان فريد عصره نظمًا ونثرًا بارعًا في الفقه والأدب والشعر الجيد.

رحل إلى دمشق سنة ٥٦٢هـ وعمل كاتبًا عند أشهر الملوك في ذلك الحين ألا وهو الملك العادل المجاهد الشهيد نور الدين محمود وظهرت مواهبه وقدراته فكان يقوم بمهمة السفير بين الملك نور الدين محمود وبين الخليفة المستنجد بالله ثم أضيف إليه التدريس بالمدرسة العمادية سنة ٥٦٧هـ فلما توفي نور الدين محمود لحق بتلميذه قاهر الصليبيين السلطان صلاح الدين الأيوبي وكان يقوم بالقضاء مكان القاضي الفاضل عند سفره.

وظل مُقربًا من صلاح الدين حتى توفي صلاح الدين رحمه الله فلزم بيته وانشغل بالتأليف والتحصيل والتدريس وله مؤلفات كثيرة أشهرها

---

(١) سير أعلام النبلاء (٢١/ ٣٤٥) «البداية والنهاية» (١٣/ ٣٠).

«البرق الشامي» في سبع مجلدات و«الفتح القدسي» و«جريدة النصر في شعراء العصر» وقال عنه ابن البذوري في «تاريخه»: العماد إمام البلغاء وشمس الشعراء.

وفي رمضان سنة ٥٩٧هـ توفي الوزير البارع والسفير الماهر والقاضي العادل والكاتب الشهير والشاعر القدير وله ٧٨ سنة قضاها في خدمة أشهر سلاطين ذلك الوقت وهما المجاهد نور الدين محمود، والمجاهد صلاح الدين الأيوبي.



قاضي قضاة مصر
شمس الدين السروجي (١)

هو أحمد بن إبراهيم بن عبد الغني بن أبي إسحاق، قاضي قضاة الحنفية في مصر أيام المماليك ولد سنة ٦٣٧هـ ومولده في قرية صغيرة تابعة لمنطقة «سروج» بفتح السين الواقعة بحران من ديار مصر بالجزيرة ثم انتقل إلى القاهرة العاصمة فقرأ الفقه على يد كبار علماء عصره مثل قاضي القضاة سليمان بن أبي العز وهيب الأذرعي شيخ الحنفية في عصره والشيخ نجم الدين اسحاق بن علي بن يحيى الذي زوجه من ابنته، والقاضي صدر الدين سليمان بن أبي العز وتمتد سلسلة الأساتذة بينه وبين تلميذه السروجي حتى تنتهي إلى الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان شيخ المذهب. وكان القاضي شمس الدين السروجي رحمه الله معروفًا بالسماحة والعفة والمهابة وطلاقة الوجه وسعة العلم والفقه، ولكنه كان عزيز النفس لا يهاب أحداً ولا يراعي مكانة ذوي السلطة وأصحاب المناصب، ولعل هذا هو السبب في أنه لم يجد من يتوسط له أو يسانده عندما عزله السلطان من وظيفته، فمات بعد عزله بأيام ذكره الذهبي في «تاريخه» وقال عنه: كان نبيلاً وقوراً فاضلاً كثير المحاسن والبر وما أظنه روى شيئًا من الحديث وكان أحد الفقهاء الأذكياء وتواليفه دالة على ذلك، عاش ثلاثًا وسبعين سنة، ثم عزله السلطان من الحكم لا لنقص فيه بل؛ لقيامه في دولة الجاشنكير لما تسلطن. انتهى كلام الذهبي، الجاشنكير المشار إليه هو بيبرس بن

---

(١) «البداية والنهاية» (١٤/ ٦٠) الطبقات السنية في تراجم الحنفية (١/ ٢٦١، ٣٠٠) «الدرر الكامنة» (١/ ٩٦)، «النجوم الزاهرة» (٩/ ٢١٢).

عبد الله المنصور قلاوون الجاشنكير، وتولىٰ سلطنة المماليك في شوال ٧٠٨ هـ. وعزل نفسه في رمضان ٧٠٩هـ بانقلاب. ويتضح من هذا النص للمؤرخ الذهبي، الذي كان معاصراً لهذه الحقبة أن القاضي السروجي أيد الجاشنكير في انقلابه، فلما عزل نفسه بعد عام تقريبًا وعادت السلطة إلىٰ الحاكم الشرعي السلطان الناصر بن قلاوون، قام بعزل القاضي السروجي جزاء تأييده للانقلاب الفاشل. وقد روىٰ الذين أرخو للقاضي السروجي أنه كان ورعًا تقيًّا فكان إذا استدان من أحد مالاً سجله في دفتر معه وأوصىٰ قبل موته بتسديد ديونه طبقًا لهذا الدفتر، فجاء شخص بعد موته إلىٰ أسرته وذكر أن له عنده مبلغًا من المال قدره مائتا درهم فبحثوا فلم يجدوه في الدفتر، فرآه شخص من أصدقائه في منامه فقال له: إن الرجل صادق وإن المبلغ مكتوب بقلم دقيق يعني بخط غير واضح فانتبه صديقه وجاء إلىٰ أسرته فبحثوا فوجدوه كما قال.

ويقال: إنه حج فسأل الله حاجة ولم يذكر ذلك لأحد، ثم جاء شخص بعد مدة فقال له: رأيت النبي ﷺ في المنام فأمرني أن أقول لك: أعطني جميع ما عندك والأمارة أنك شربت ماء زمزم لولاية القضاء فقال القاضي نعم وأخرج له ما عنده وهو مائة دينار وألف درهم وقال: لو كان عندي أكثر من هذا لدفعته إليك فإن الأمارة صحيحة والله تعالىٰ أعلم.

ولا يزال بعض مؤلفات القاضي السروجي يدرس وله قدره ومكانته في المذهب الحنفي مثل كتاب: « الغاية في شرح الهداية » في ستة مجلدات وتوفي سنة ٧١٠ هـ ولم يكمله.

* * *

أبو الحسن الخلعي [١]
قاضي الجن والإنس

الشيخ الإمام الفقيه القدوة مسند الديار المصرية القاضي أبو الحسن علي بن الحسن بن الحسين بن محمد الموصلي الأصلي المصري النشأة الشافعي المذهب، الخلعي صاحب الفوائد العشرين وراوي السيرة النبوية.

ولد بمصر سنة ٤٠٥هـ وكان أبوه بزازًا وكانت أمراء مصر يشترون الخلع من عنده وكان يتصدق بثلث مكسبه. سمع من كبار العلماء والفقهاء حتى أصبح من بحور العلم وحدث عنه كثير من كبار العلماء منهم القاضي الشهير والعالم الجليل أبو بكر بن العربي.

قال الحافظ إسماعيل الأنماطي: سمعت أبا صادق عبد الحق بن هبة الله القضاعي سمعت العالم أبا الحسن علي بن إبراهيم بن بنت أبي سعد يقول: كان القاضي الخلعي يحكم بين الجن والأنس وإنهم أبطئوا عليه قدر جمعة ثم أتوه وقالوا: قد كان في بيتك اترج [٢] ونحن لا ندخل مكانًا يكون فيه.

وقال أبو الفضل الجوهري الواعظ: كنت أتردد إلى الخلعي فقمت في ليلة مقمرة فإذا على باب مسجده فرس حسنة ووجدت بين يديه شابًا لم أر أحسن منه يقرأ القرآن فجلست أسمع إلى أن قرأ جزءًا ثم قال للشيخ جزاك الله خيرًا

---

(١) سير أعلام النبلاء (١٩/ ٧٤).

(٢) شجر ناعم الأغصان والورق والثمر، وثمره كالليمون الكبار وهو ذهبي اللون، ذكي الرائحة كما جاء في «المعجم الوسيط» ومن خواصه أن الجن لا تدخل بيتًا فيه أترجة.

فقال الشيخ الخلعي : ونفعك الله ، ثم نزل الشاب فلما ركب الفرس طارت به فخفت فقال القاضي لا تخف هذا من مؤمني الجن يأتي في الأسبوع مرة يقرأ جزءًا ويمضي .

وكان لا يلبس في الحر ولا في البرد سوى قميص واحد ووجهه في غاية الحسن لا يتغير من البرد ولا الحر فسأله الشيخ ابن بخيساه فدمعت عيناه وقال : أتكتم عني ما أقول؟ فقال نعم فقال : غشيتني الحمى ذات يوم فدعوت الله أن يشفيني ويذهب عني الحمى والبرد فلا أشعر بألم الحر ولا ألم البرد .

توفي سنة ٤٩٢ هـ وقبره معروف بالقرافة بقبر قاضي الجن والإنس .

❊ ❊ ❊

القاضي الكبير والأمير القدير والوزير الشهير أبو القاسم محمد بن إسماعيل [١]

القاضي الكبير أمير أشبيلية ومدبر أمرها وحاكمها أبو القاسم محمد بن إسماعيل بن عباد، أصله من الشام من ذرية أمير الحيرة النعمان بن المنذر.

نشأ محبًّا للعلم وبرع فيه وتنقلت به الأحوال حتىٰ تولىٰ قضاء أشبيلية في أيام دولة بني حمود العلوية فسار في القضاء سيرة حسنة ونشر العدل وحكم بالحق فأحبه الناس والأعيان وأطاعوه.

ثم غضب الأمير يحيىٰ بن علي بن حمود علىٰ أهل أشبيلية وكان ظلومًا غشومًا، فحاصر أشبيلية، فاجتمع أهل أشبيلية كبيرهم وصغيرهم علىٰ القاضي ابن عباد وقالوا: انهض بنا إلىٰ هذا الظالم الغشوم ولا يصلح للإمارة إلا أنت، فأجابهم وخرج بهم لقتال الأمير يحيىٰ بن حمود ودارت معركة كبيرة انتهت بمقتل الأمير يحيىٰ وانتصار القاضي أبو القاسم محمد بن إسماعيل ودانت له الرعية وتملك قرطبة وغيرها من البلاد ولقب بالظافر وظهرت مواهبه وكما كان قاضيًا عادلاً محبوبًا أصبح أميرًا حاكمًا عادلاً محبوبًا، ولم تغيره الإمارة ولم يفسده الملك فأحبه العباد ودانت له البلاد فحكم وعدل ونشر الأمن في البلاد وأقام العدل للعباد.

ثم علم أن المؤيد بالله حي يرزق فذهب إليه وبايعه بالخلافة وصار وزيرًا له

---

(١) سير أعلام النبلاء (١٧/ ٥٢٧)

نيفًا وعشرين سنة وظل كذلك حتى توفي رحمه الله سنة ٤٣٣هـ بعد حياة مليئة بالأحداث أثبت فيه كفاءته في كل منصب تولاه فكان قاضيًا عادلاً في محراب القضاء وقائدًا عسكريًّا في ميدان القتال وأميرًا عادلاً في ميدان الحكم ووزيرًا قديرًا للخليفة .

* * *



القاضي الحارث بن مسكين[١]
شهد بالحق ونطق بالصدق

الحارث بن مسكين بن محمد بن يوسف الإمام العلامة الفقيه المحدث الثبت الناطق بالحق والقاضي بالعدل قاضي القضاة بمصر.

ولد سنة ١٥٤هـ وطلب العلم على كبر وتفقه على العالم الكبير الشهير سفيان بن عيينة وعبد الله بن وهب وغيرهما من كبار العلماء. وما زال يسعى لطلب العلم بهمة عالية ونية صادقة دون كلل أو ملل حتى أصبح من كبار العلماء وسادات الفقهاء بالديار المصرية وشدت إليه الرحال لطلب العلم منه وحدث عنه كبار المحدثين مثل أبي داود[٢] والنسائي[٣] وعبد الله بن الإمام أحمد بن حنبل وأبو يعلى الموصلي وآخرون.

وكان يحكم مصر في ذلك الحين إبراهيم بن تميم وأحمد بن أسباط وكانا ظالمين غاشمين وقد تظلم الناس منهما. وعندما أتى أمير المؤمنين المأمون إلى

---

(١) وفيات الأعيان (٢/ ٥١) سير أعلام النبلاء (١٢/ ٥٤)

(٢) هو سليمان بن الأشعث بن إسحاق مؤلف كتاب سنن أبي داود وهو من أشهر كتب الحديث ولد سنة ٢٠٢ هـ وتوفي سنة ٢٧٥ هـ، قال عنه الحافظ الحاكم: أبو داود إمام أهل الحديث في زمانه بلا مدافعة وقال عنه الحافظ موسى بن إبراهيم: خلق أبو داود في الدنيا للحديث وفي الآخرة للجنة إن شاء الله وقال عنه محمد بن إسحاق: ألين لأبي داود الحديث كم ألين لداود عليه السلام الحديد.

(٣) هو الإمام شيخ الإسلام الحافظ أبو عبد الرحمن بن شعيب كان أفقه مشايخ عصره وأعلمهم بالحديث والرجال، وكتابه «سنن النسائي» من أشهر كتب الحديث، ولد سنة ٢١٥ هـ وتوفي سنة ٣٠٣ هـ

مصر طلب من وزيره اختيار أحد العلماء لمنصب قاضي القضاة بالديار المصرية وتحرىٰ الوزير عن العلماء والفقهاء فلم يجد أفضل من الحارث بن مسكين فقد كان من العلماء العاملين الزاهدين الناطقين بالحق والعدل.

وجلس الوزير في الجامع واجتمع الأعيان والأمراء والعلماء وأحضر الحارث بن مسكين ليوليه القضاء وبينما الوزير يكلم الشيخ إذ قال له متظلم: أصلح الله الوزير سل الحارث بن مسكين عن ابن تميم وابن أسباط فقال الوزير: ما تقول فيهما؟ فقال الحارث: أعفني فقال الوزير لا أعفيك، فقال الحارث هما ظالمان غاشمان فثار الناس واضطرب المسجد، فقد صادف هذا القول هوىٰ الناس لأنه عين الحقيقة ولأنه قال ما يدور في قلوب الناس ويخشون النطق به. وأحس الوزير بالغضب الذي يدور في قلوب الناس وخشي ثورتهم فقام مسرعًا وأعلم أمير المؤمنين بما حدث وقال: لقد خفت علىٰ نفسي من ثورة الناس مع الحارث، فغضب المأمون واستدعىٰ الحارث وقال له: ما تقول فيهما؟

فقال: ظالمين غاشمين.

فقال المأمون: هل ظلماك بشيء؟ فقال الحارث: لا.

فقال المأمون: هل عاملتهما؟ فقال الحارث: لا.

فقال المأمون: فكيف تشهد عليهما؟

فقال الحارث بن مسكين: كما شهدت أنك أمير المؤمنين ولم أرك إلا هذه الساعة.

فقال المأمون: بع قليلك وكثيرك واخرج من هذه البلد وحبسه ولما ترك المأمون مصر وذهب لقتال أهل البشرود أخذه معه وظن أن الحبس قد أضعف عزيمته فقال له: ما تقول فيهما؟

فرد الجواب بعينه : هما ظالمان غاشمان .

فقال المأمون : فما تقول في قتالنا لأهل البشرود؟

فقال الحارث : أخبرني ابن القاسم عن مالك أن الرشيد كتب إليه يسأله عن قتال أهل البشرود فقال مالك رحمه الله : إن كانوا خرجوا عن ظلم وقع عليهم من السلطان فلا يحل قتالهم وإن كانوا شقوا عصا الطاعة فقتالهم حلال .

فغضب عليه المأمون وقال : أنت تيس ، ارحل عن مصر .

فقال الحارث : إئذن لي أن أذهب إلى الثغور لجهاد الأعداء ، فقال المأمون لا ، بل إلى مدينة السلام .

وظل الحارث محبوساً بمدينة السلام ، وأحضر ذات يوم لمجلس المأمون وظل المأمون يقول : يا ساعي ويرددها وأحس الحارث بأنه المقصود فلم يرتجف ولم يرتعش وقال بعزة العالم وصدق الزاهد : والله ما أنا بساع ولكني أحضرت فسمعت وأطعت ثم سئلت عن أمر فاستعفيت فلم أعف فكان الحق آثر عندي من غيره .

فقال المأمون : هذا رجل أراد أن يرفع له علم ببلده ، وأعاده إلى محبسه وظل الحارث محبوساً ببغداد ست عشرة سنة حتى أطلقه الواثق بالله في آخر أيامه . فرجع إلى مصر وأقام بالإسكندرية يعلم الناس الخير .

وفي عام ٢٣٧ هـ أتاه كتاب الخليفة بتوليته القضاء بمصر فامتنع فلم يزل إخوانه وتلاميذه يلحون عليه لقبول القضاء ويقولون : هذه فرصة لنشر الحق والعدل ونصرة المظلوم فقبل على مضض وجلس يحكم ويقضي بين الناس بما يرضي الله فنشر السنة وقمع البدعة وأمر بمنع النداء على الجنائز وأقام الحد على من سب أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها وقتل ساحرين .

وفي سنة ٢٤٥ هـ طلب إعفاءه من القضاء فأعفي وتفرغ للعلم والعبادة حتى توفي سنة ٢٥٠ هـ وله ٩٦ سنة بعد عمر مديد وعمل سعيد تحمل فيه مرارة النفي من مصر وقسوة السجن في بغداد فما وهن وما ضعف بل كان قوالاً بالحق لا يخشى إلا الله لم يرتجف أمام وزير ولم يرتعش أمام أمير المؤمنين بل نطق بالحق وهو يعلم أنه سيتعرض لغضب السلطان، وما أدراك ما السلطان... منصب... وجاه... وحال... وشهرة ولكنه أعرض عن كل ذلك وزهد فيه وكان الحق عنده أحب إليه من الدنيا وما عليها فعاش سجيناً سعيداً ومات حميداً مشكور السيرة رحمه الله رحمة واسعة.



القاضي محمد بن عمر الواقدي [(١)]
أعلم الناس بالسير والمغازي

محمد بن عمر بن واقد الأسلمي المديني، القاضي الشهير والعالم الجليل الإمام العلامة أبو عبد الله أحد أوعية العلم في زمانه. وكان كريمًا جوادًا مشهوراً بالسخاء وله جلالة ومهابة في النفوس.

ولد سنة ١٣٠هـ وأحب العلم وسعى إليه بهمة عالية وبنية صادقة منذ صغره، وظل يطلب العلم دون كلل أو ملل بضعًا وأربعين سنة وذهب إلى علماء الشام والرقة وسمع من صغار التابعين وممن بعدهم بالحجاز والشام حتى أصبح من أوعية العلم، عالمًا بالمغازي وأيام الناس وأحاديثهم ولا يستغنى عنه في أيام الصحابة وأخبارهم وكانت له طريقة فريدة جديدة في معرفة الأخبار تعتمد على المعاينة والتحقق من كل ما سمعه فقال عن نفسه:

ما أدركت رجلاً من أبناء الصحابة أو من أبناء الشهداء إلا وسألته هل سمعت أحدًا من أهلك يخبرك عن غزوة أو سرية أو مشهد وإن كان قتل سألته أين قتل ومن قتله وأين دفن؟ فإذا أعلمني ذهبت إلى الموضع الذي ذكره فأعاينه بنفسي وما علمت من غزوة حتى ذهبت إلى مكانها حتى أعاينه ولقد ذهبت إلى «المريسيع» فنظرت إليها وعاينتها وظل حريصًا على المعاينة الدقيقة لكل حدث حتى أصبح حجة ومرجعًا في «المغازي والسير».

وعرف فضله العلماء فقال عنه الخطيب البغدادي: هو من طبق ذكره شرق

(١) سير أعلام النبلاء (٩/ ٤٥٤).

الأرض ومغاربها وسارت بكتبه الركبان في فنون العلم من المغازي والسير والطبقات في الفقه وسائر العلوم وقال عنه إبراهيم الحربي : الواقدي أمين الناس على أهل الإسلام وهو من أعلم الناس بأمر الإسلام .

جمع الواقدي بين خيري الدنيا والآخرة وبين سعيه للعلم وسعيه على نفسه وأهل بيته فقد كان بجانب طلبه للعلم يتاجر في الحنطة ، بالمدينة المنورة وكان يضارب بأموال الناس وبلغت تجارته مائة ألف درهم وفي عام ١٨٠ هـ تعرض لخسارة فادحة أدت إلى خسارته لكل الأموال التي كان يتاجر بها وضاقت عليه الأرض بما رحبت فذهب إلى بغداد وقصد الوزير الشهير يحيى بن خالد فأكرمه وأعطاه أكثر من مائتي ألف درهم فعاد للمدينة المنورة وقضى ديونه ثم عاد إلى العراق واستقر في الجانب الغربي من بغداد وتفرغ للعلم والتحصيل والتدريس وذاع صيته واشتهر أمره .

وعرف أمير المؤمنين المأمون فضله وقدره فولاه القضاء بعسكر المهدي شرقي بغداد ، فلما انتقل من الجانب الغربي من بغداد إلى الجانب الشرقي حمل كتبه على ١٢٠ وقراً[(١)] وكان له ستمائة قمطر[(٢)] من الكتب .

وظل رحمه الله يقضي بالحق وينشر العلم ويرجع إليه الناس في معرفه أخبار الصحابة ومعرفة أيامهم ومعاركهم حتى توفي رحمه الله سنة ٢٠٧ عن ٧٧ سنة .

* * *

(١) حمل .
(٢) ما يصان فيه الكتب .

قاضي المدينة المنورة وتلميذ الفقهاء السبعة
يحيى بن سعيد الأنصاري[(١)]
من كانت نفسه واحدة لم يغيره المال

أبو سعيد يحيى بن سعيد بن قيس بن عمرو الأنصاري الخزرجي البخاري الإمام العلامة المجود قاضي حرم رسول الله ﷺ ومفتيها في عصره صاحب حديث «الأعمال بالنيات» وعنه اشتهر، حتى يقال: رواه عنه نحو المائتين.

ولد قبل سنة ٧٠هـ في زمن عبد الله بن الزبير وسمع من كبار الصحابة وتتلمذ على يد الفقهاء السبع[(٢)] وسمع من أنس بن مالك والسائب بن يزيد وأبي أمامة بن سهل وسعيد بن المسيب وعلي بن الحسين رضي الله عنهما وكثير من علماء المدينة المنورة وما زال يسعى لطلب العلم بهمة عالية ونية صادقة حتى أصبح من سادات الفقهاء وعظماء العلماء وكان ينادى في زمن أمير المؤمنين مروان بن الحكم لا يفتي الحاجَّ في المسجد النبوي إلا يحيى بن سعيد وعبيد الله

(١) سير أعلام النبلاء (٥/ ٤٦٨) طبقات الفقهاء (١/ ٥١)

(٢) هم أعظم الفقهاء وأشهر العلماء الذين تواجدوا بالمدينة المنورة في وقت واحد وهم:

١ـ أبان بن عثمان

٢ ـ سليمان بن يسار

٣ ـ القاسم بن محمد

٤ ـ عروة بن الزبير بن العوام

٥ ـ عبيد الله بن عبد الله بن عتبة

٦ ـ خارجة بن زيد بن الضحاك

٧ـ أبو بكر بن سليمان بن أبي خيثمة

بن عمر ومالك بن أنس وقصده طلبة العلم من كل مكان فلم يتغير ولم يتبدل وكان يقول في مجلسه : اللهم سلم سلم وتتلمذ على يديه كثير من العلماء وروى عنه كبار الحفاظ فقد روى عنه : الزهري مع أنه من شيوخه وابن أبي ذئب وشعبة ومالك وسفيان الثوري وسفيان بن عيينة والأوزاعي والليث بن سعد وأبو إسحاق الفزاري والعالم الرباني عبد الله بن المبارك والقاضي أبو يوسف وكثير من العلماء .

وقد أثنى عليه كبار العلماء فقال عنه الإمام أحمد بن حنبل : يحيى بن سعيد أثبت الناس وقال النسائي : يحيى بن سعيد ثقة ثبت وقال الذهبي : الإمام العلامة، عالم المدينة في زمانه وشيخ عالم المدينة وتلميذ الفقهاء السبعة وقال عنه سفيان الثوري : هو أجل عند أهل المدينة من الزهري لأن الزهري اختلف عليه ويحيى لم يختلف عليه، وقال جرير : سألت يحيى بن سعيد وما رأيت شيخًا أنبل منه، وقال أمير المؤمنين في الحديث ابن حجر العسقلاني : يحيى بن سعيد ثقة ثبت وقال العجلي : كان يحيى بن سعيد رجلاً صالحًا فقيهًا .

وعلم بفضله وعلمه أمير المؤمنين أبو جعفر المنصور فولاه قضاء المدينة المنورة وكان رحمه الله خفيف الحال قليل المال وظل على هذه الحالة بعد توليه القضاء وقيل له : لقد أصبحت قاضي المدينة المنورة ولم يتغير حالك عما كان فقال : من كانت نفسه واحدة لم يغيره المال ورغم قلة ماله كان كريمًا سخيًّا مع أصحابه فقد كان له ميراث في أفريقيا قدره خمسمائة دينار فلما حصل عليه عاد إلى المدينة المنورة ولما أتاه ربيعة يسلم عليه أغلق الباب عليهما ثم أحضر المال وقال : يا أبا عثمان والله ما غيبت منه ديناراً إلا ما أنفقته في الطريق ثم عد مائتين وخمسين ديناراً فدفعها إلى ربيعة وظل رحمه الله متقللاً من الدنيا معرضًا عنها حتى توفي سنة ١٤٣هـ وقيل ١٤٤هـ.

محارب بن دثار قاضي الكوفة[١]
الشاكر الحامد

محارب بن دثار السدوسي الفقيه العالم والقاضي العادل. كان بحراً من بحور العلم فقد أدرك الصحابي الجليل عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما وروىٰ عنه كما روىٰ عن الصحابي جابر بن عبد الله وعبد الله بن يزيد وجماعة.

كان حريصًا علىٰ طلب العلم حتىٰ أصبح ثقة حجة معروفًا مشهوراً عند أكابر العلماء قال عنه الإمام الجليل سفيان الثوري: ما يخيل إليَّ أنني رأيت أحداً أفضله علىٰ محارب بن دثار ووثقه إمام الأئمة وشيخ أهل السنة والجماعة أحمد بن حنبل ووثقه الإمام الحافظ يحيىٰ بن معين.

كان رحمه الله عالمًا فاضلاً عابداً صادقًا فقد كان يقوم في الليل ويصلي ويقول في دعائه:

يارب أنا الصغير الذي ربيته فلك الحمد، وأنا الضعيف الذي قويته فلك الحمد، وأنا الفقير الذي أغنيته فلك الحمد، وأنا الغريب الذي راعيته فلك الحمد، وأنا العزب الذي زوجته فلك الحمد، وأنا الجائع الذي أشبعته فلك الحمد، وأنا العاري الذي كسوته فلك الحمد، وأنا المسافر الذي صاحبته فلك الحمد، وأنا الغائب الذي رددته فلك الحمد، وأنا المريض الذي شفيته فلك

---

(١) سير أعلام النبلاء (٥/ ٢١٧) شذرات الذهب (١/ ١٥٢) أصول الوصول إلىٰ الله تعالىٰ محمد حسين يعقوب ص٣٦.

الحمد، وأنا السائل الذي أعطيته فلك الحمد، وأنا الداعي الذي أجبته فلك الحمد، اللهم لك الحمد حمداً كثيراً على حمدي لك .

تولى قضاء الكوفة فأحبه أهلها وأكرمه أميرها فقد كان عادلاً صادقًا وناصحًا أمينًا جلس ذات يوم للقضاء فتقدم إليه رجلان وادعى أحدهما على الآخر مالاً فقال للمدعى عليه : هل أخذت منه مالاً؟ فأنكر المدعى عليه .

فسأل القاضي الرجل الآخر ألك بينة؟ قال : نعُم فلان .

فقال المشهود عليه : إنا لله وإنا إليه راجعون لئن شهد علي ليشهدن بزور ولئن سألتني عنه لأزكينه ، فلما جاء الشاهد شهد عليه .

فقال المشهود عليه : والله الذي لا إله إلا هو ما شهد عليَّ بحق ، وما علمته إلا رجلاً صالحًا غير هذه الزلة ، فإنه فعل هذا لحقد كان في قلبه عليّ .

وكان القاضي متكئًا فاستوى جالسًا ثم قال للشاهد : ليأتين على الناس يومٌ تشيب فيه الولدان وتضع الحوامل ما في بطونها من شدة ذلك اليوم فإن كنت شهدت بحق فاتق الله وأقم على شهادتك وإن كنت شهدت بباطل فاتق واخرج من هذا الباب ثم قال للشاهد بم تشهد؟

فقال الشاهد : أرجع أتذكر ثم خرج .

توفي رحمه الله سنة ١١٦ هـ وحزن عليه الناس فقد كان قاضيًا عادلاً وعالمًا عاملاً وعابدًا مخلصًا وشاكرًا حامدًا .

* * *

شيخ العراق
القاضي أبو الطيب الطبري[1]
عاش فقيراً ومات فقيراً

أبو الطيب الطبري، العالم الصالح والفقيه البارع شيخ الشافعية في زمانه.

ولد طاهر بن عبد الله بن طاهر بن عمر الشهير بأبي الطيب الطبري في طبرستان سنة ٣٤٨هـ سمع الحديث من علماء جرجان وتفقه على أبي علي الزجاج ورحل إلى نيسابور وسمع من أبي حامد الماسرجي وصحبه أربع سنين وتفقه عليه ثم رحل إلى بغداد وأخذ العلم من كبار علمائها فأخذ الفقه من أبي حامد الإسفراييني وسمع الحديث من الدارقطني وغيره من كبار العلماء وأصبح عارفًا بأصول الفقه وفروعه محققًا في علمه وظل مواظبًا على تحصيل العلم ليلاً ونهاراً حتى صار شيخ الشافعية في عصره وتتلمذ مع يديه الشيخ أبو إسحاق الشيرازي وقال في حقه: لم أر فيمن رأيت أكمل اجتهاداً منه وأشد تحقيقًا منه وأجود نظراً منه.

شرح «مختصر المزني» و«فروع أبي بكر المصري» وصنف في الأصول والمذهب الشافعي والخلاف والجدل كتبًا كثيرة.

تولى القضاء بالكرخ بعد موت القاضي أبي حامد الصيمري فحكم وعدل وقضى بالحق فأحبه الناس فقد كان بجانب علمه سليم الصدر حسن الخُلق ثقة،

---

(١) طبقات الفقهاء (١/ ١٣٥) شذرات الذهب (٢/ ١٧٧) طبقات الشافعية (١/ ١٩٨) إيقاظ أولي الهمم العالية لاغتنام الأيام الخالية.

دينًا، ورعًا.

ولم يفسده المنصب فقد كان زاهدًا معرضًا عن الدنيا، فعاش فقيرًا ومات فقيرًا، ولو أراد الدنيا لأخذ منها ما شاء وترك ما شاء، وكان له ولأخيه عمامة واحدة وقميص واحد، فإذا لبسهما هذا جلس الآخر في البيت لا يخرج منه وإذا غسلاهما جلسا في البيت حتىٰ يجفا وقال في ذلك أبو الطيب الطبري.

قوم إذا غسلوا ثيابهم لبسوا البيوت إلى فراغ الغاسل

وظل علىٰ هذه الحالة من الذهد والورع مقبلاً علىٰ الآخرة معرضًا عن الدنيا حتىٰ توفي سنة ٤٥٠ هـ وهو ابن مائة وستين ولم يختل عقله ولا تغير فهمه وكان يُفتي مع الفقهاء ويستدرك علىٰ العلماء الخطأ ويقضي في دار الخلافة إلىٰ أن مات.

وقال القاضي أبو بكر الشامي: قلت لشيخنا القاضي أبي الطيب الطبري وقد أطال الله عمره: لقد متعك الله بجوارحك.

فقال: نعم، والله ما عصيت الله بواحدة منها قط.

وركب ذات يوم مركبًا وكان شيخًا عجوزًا قد أتم مائة سنة ثم قفز من المركب فقيل له: يا شيخ، لا تفعل هذا فإن أعضاءك لا تقوىٰ علىٰ ذلك.

فقال: يا هذا إن أعضاءنا حفظناها عن معاصي الله في الصغر فحفظها الله علينا في الكبر.

* * *

قاضي القضاة محمد بن علي المروزي[1]
خياط الأيتام والمساكين

الإمام المحدث الحافظ والقاضي الورع أبو عبد الله محمد بن علي المروزي، أحد السادات العلماء والفقهاء الأولياء .

ولد سنة بضع وثلاثين ومئتين سمع الحديث من الحافظ أحمد بن سيار ومحمود بن أدهم وغيرهما من كبار العلماء والفقهاء . وعرف بالخياط لأنه كان يخيط للأيتام والمساكين حسبة .

ولي منصب قاضي القضاة بنيسابور في سنة ٣٠٨ هـ على كبر فكان عفيفًا ورعًا كريم الأخلاق، ما شرب لأحد شربة ماء تورعًا ولا عثر له على زلة . وظل يقضي بالحق ويحكم بالعدل حتى طلب إعفاءه من القضاء سنة ٣١١هـ فأعفي .

وكان له في كل أسبوع ليلة يذهب فيها إلى الجامع يخلو فيها بنفسه ويتعبد إلى الصباح دون أن يشعر به أحد فقد كان حريصًا على كتم حسناته كحرصنا على كتمان سيئاتنا وكان رحمه الله مشغولاً بحال الفقراء والمساكين والأيتام في ليله ونهاره فكان إذا جاء الليل تفرغ لخياطة ملابس الفقراء والمساكين والأيتام وإذا جاء النهار تفرغ لقضاء مصالحهم وحوائجهم دون كلل أو ملل رغم كبر سنه وعلو شأنه .

وظل على هذه الحالة الطيبة يقضي مصالح الفقراء والمساكين والأيتام ابتغاء مرضاة الله حتى توفي بعد العشرين وثلاث مائة وله بضع وثمانون سنة .

---

(١) سير أعلام النبلاء (١٤/ ٥٦٤)

قاضي طليطلة
أحمد بن الوليد الناسك العابد[1]

أحمد بن الوليد بن عبد الخالق بن عبد الجبار من ذرية القائد المجاهد الفاتح قتيبة بن مسلم .

من بيت علم وورع وفقه وفضل وجلالة فهو قاض بن قاض بن قاض بن قاض كلهم ولي قضاء طليطلة .

كان رحمه الله ثقة نبيلاً عالمًا بالحديث والرجال، نبيلاً فاضلاً صحيح اليقين بالله - تولى قضاء طليطلة وجيان فما تغير حاله فكان من العباد الصالحين وله نسك وخشوع وزهد وظل كذلك حتى توفي سنة ٢٩٠هـ ويقال ٢٩٧هـ

* * *

(١) الديباج المذهب في أعيان المذهب .

القاضي المجاهد معاوية بن صالح[١]

من جلة العلماء وسادات الفقهاء ذكر ابن حبان في «تاريخه» أنه دخل الأندلس قبل وصول الأمير عبد الرحمن الداخل. وهو من كبار العلماء، عالي الرواية ويذكر عنه أنه روىٰ عن مالك بن أنس.

أرسله عبد الرحمن الداخل إلىٰ الشام في مهمة صعبة خطيرة ألا وهي إحضار أختيه من الشام فما وهن وما خاف واستطاع الوصول إليهما وعرض عليهما رغبة عبد الرحمن الداخل فلم يطاوعاه فرجع فولاه القضاء.

وكان رحمه الله يحضر مع الأمير عبد الرحمن غزواته ومعاركه في النهار فإذا جاء الليل أحيا ليله بالقيام والصلاة.

وظل علىٰ هذه الحالة الطيبة من الجهاد في سبيل الله والحكم بين الناس بالعدل وقيام الليل حتىٰ توفي رحمه الله.

* * *

(١) المغرب في حلي المغرب (١/ ١٠٣).

القاضي الشهيد
أبو الوليد بن الفرضي[١]

أحد علماء المغرب الصالحين العاملين الصادقين توجه لقضاء الحج وكان محبًّا لأهله وزوجته فكتب إليها يقول:

مضت شهور منذ رحلت عنكم ثلاثة، ومالي حياة بعدكم أستلذها، وأعلل نفسي بالمُنىٰ في لقائكم، وأستهل البر والبحر ويؤنسني طيفكم في كل مكان، وتالله ما فارقتكم عن قلبي، ولكنها الأقدار تجري كما قدر لها.

وعند حجه تعلق بأستار الكعبة وسأل الله الشهادة، ثم عاد إلىٰ المغرب ومر في طريقه بمصر، فأحبه أهلها وطلبوا منه الإقامة عندهم للاستفادة بعلمه فقال: من المروءة الرجوع إلىٰ الوطن.

وعندما عاد إلىٰ المغرب تولىٰ قضاء أستجة فعدل في حكمه ونصر المظلوم وقمع الظالم فأحبه الناس وهابه الأمراء وظل كذلك حتىٰ حدثت فتنة البربر سنة ٤٠٠هـ فقتل فيها.

وقال الإمام ابن حزم: أخبرني من رآه بين القتلىٰ يومئذ وهو في آخر رمق وهو يقول:

«لا يُكلم أحد في سبيل الله، والله أعلم بمن يُكلم في سبيله إلا جاء وجرحه يوم القيامة يثغب دمًا، اللون لون الدم والريح ريح المسك»[٢].

---

(١) المغرب في حلي المغرب (١/ ١٠٣).

(٢) حديث صحيح رواه مسلم.

رحم الله أبا الوليد فقد سأل الله الشهادة بصدق فرزقه الله الشهادة في سبيل الله وكان العلم رفيقه في الحياة وعند الاحتضار فهو يحتضر ويعلم الناس فضل الشهادة ومنزلة الشهيد.

* * *

أبو عبد الله الدمغاني[(١)]
الحارس الذي أصبح قاضي القضاة

العلامة البارع والشيخ الصالح مفتي العراق قاضي القضاة أبو عبد الله محمد بن علي بن محمد الدمغاني الحنفي .

ولد بدمغان سنة ٣٩٨هـ في أسرة شديدة الفقر لا تملك من حطام الدنيا شيئًا وكان يعمل حارسًا ويقوم على معيشته رجل يسمى أبا العشائر الشيرجي وكان عليه أن يبدأ حياته من الصفر، بل ومن تحت الصفر فكان يسعى لتحصيل العلم في النهار وينتقل من عالم إلى آخر ومن درس إلى درس آخر، كان يدور على العلماء كما تدور الساقية دون كلل أو ملل وعندما يأتي المساء لا يستريح فقد كان يعمل حارسًا .

وأعانه على تحمل هذه الظروف المعيشية القاسية رغبة قوية صادقة في طلب العلم وهمة عالية وتوفيق من الله قبل كل شيء. وظل يعمل ويتعلم فسمع من علماء خراسان وعلماء دمغان ثم أتى بغداد وكان شابًّا فسمع من علمائها وتعلم المذهب الحنفي وبرع فيه حتى أصبح حجة في المذهب الحنفي، بل وبرع في المذهب الشافعي وكان القاضي أبو الطيب الطبري شيخ الشافعية يقول: الدمغاني أعرف بمذهب الشافعي من كثير من أصحابنا وكان يورد في درسه بعض المداعبات والنوادر .

وعرف فضله وعلمه الخليفة القائم بأمر الله فولاه القضاء سنة ٤٤٧هـ وله

(١) سير أعلام النبلاء (١٨/ ٤٨٥)

خمسون سنة وظل قاضيًا ثلاثين سنة وأشهر كان فيها عالما بارعًا وقاضيًا عادلاً له جلالة ومهابة في النفوس، ومنزلة عالية عند الناس يشبه قاضي القضاة أبا يوسف في زمانه.

وكان رحمه الله بهي الصورة جيد السريرة بلغ المنزلة العالية في العلم والدين والعقل والحلم وكرم العشرة والمروءة حريصًا على فعل الخير ورعاية الفقراء في السر والعلن.

وفي رجب سنة ٤٧٨هـ توفي الحارس الأمين والعالم الفقيه والقاضي العادل أبو عبد الله الدمغاني، مات الفقير العصامي، الذي ملأ الدنيا علمًا وعملا وترك تلاميذ كثيرين أصبحوا علماء ونشروا العلم بالبلاد.



الإمام ابن حبان[1]
القاضي المحدث والطبيب الفلكي

الإمام الحافظ العلامة القاضي العادل والطبيب البارع والفلكي الماهر أبو حاتم محمد بن حبان بن أحمد بن حبان التميمي البستي صاحب التصانيف الكثيرة الشهيرة المفيدة.

ولد سنة بضع وسبعين ومائتين وأحب العلم كل العلم وأقبل عليه بكل جوارحه وحواسه وأعطاه الله همة عالية سخرها في طلب العلم فقد ذكر عن نفسه في كتاب «البيوع» أنه كتب عن أكثر من ألفي شيخ وما زال يترقى في العلم حتى برع في علوم كثيرة وأصبح من فقهاء الدين وحفاظ الأحاديث عالمًا بالنجوم والفلك بارعًا في الطب.

أخذ العلم على كبار العلماء ورحل إليهم فسمع من علماء بلده وعلماء نيسابور وبغداد وسمع من الإمام المحدث الشهير النسائي والحسن بن سفيان وأبي يعلى الموصلي حتى أصبح من أوعية العلم في الفقه والحديث واللغة والوعظ والطب والفلك وشدت إليه الرحال لطلب العلم فهو أحد الحفاظ الكبار المصنفين المجتهدين.

تولى قضاء نيسابور سنة ٣٣٤ هـ وظل بها قاضيًا حتى سنة ٣٣٤هـ حيث عاد إلى نيسابور ثم رجع إلى وطنه سجستان سنة ٣٤٠هـ وظل بها حتى مات

(١) سير أعلام النبلاء (١٦/ ٩٢) طبقات الحفاظ (١/ ٣٧٥) أبجد العلوم (٢/ ٢٨٥) معجم البلدان (١/ ٤٨).

سنة ٣٥٤هـ وقد ترك ثروة هائلة من المؤلفات المفيدة أشهرها وأعظمها كتابه المسمىٰ «صحيح ابن حبان» وهو كتاب نفيس، جليل القدر، عظيم الفائدة، حرره مؤلفه أدق تحرير، وجوده أحسن تجويد، وحقق أسانيده ورجاله وعلل ما احتاج إلىٰ تعليل من نصوص الأحاديث وأسانيدها وتوثق من صحة كل حديث وهو أحد الكتب الثلاثة[1] التي ألفت في الصحيح المجرد بعد الصحيحين البخاري ومسلم وهو كتاب علىٰ ترتيب مخترع لم يعرفه أهل العلم من قبل فلا هو مرتب علىٰ أبواب الفقه ولا علىٰ المسانيد، فقد رتبه علىٰ خمسة أقسام وهي: الأوامر والنواهي والأخبار والإباحات وأفعال النبي ﷺ.

وكان رحمه الله قبل وفاته جمع كل كتبه في داره وجعلها وقفًا في سبيل الله لكل طالب علم وقد ترك مؤلفات كثيرة وعلمًا مفيداً وتلاميذ عظماء فأشهر الكتب الصحيحة المشار إليها آنفًا فصحيح ابن خزيمة ألفه شيخه أبو بكر محمد ابن إسحاق بن خزيمة النيسابوري الذي شهد له بالفضل والسبق وإتقان الرواية وحسن الدراية قال عنه الذهبي: كان فريد عصره والكتاب الثاني «صحيح ابن حبان» وهو تلميذ ابن خزيمة والكتاب الثالث: «المستدرك للحاكم» ومؤلفه أبو عبد الله محمد بن عبد الله الضبي النيسابوري المشهور بالحاكم والمعروف بابن البيع وهو تلميذ لابن حبان رحمه الله.

* * *

(١) صحيح ابن خزيمة، صحيح ابن حبان، المستدرك للحاكم.

ابن العربي[1]
قاضي أشبيلية

الإمام العلامة الحافظ المتبحر ختام علماء الأندلس وشيخ حفاظها وفقهائها قاضي أشبيلية العادل محمد بن عبد الله بن محمد بن عبدالله بن أحمد المعروف بابن العربي ويكنى أبا بكر.

ولد بأشبيلية سنة ٤٦٨ هـ في أسرة محبة للعلم.

فأبوه: الإمام العلامة الأديب ذو الفنون أبو محمد عبد الله بن محمد بن العربي كان من فقهاء بلدة أشبيلية ورؤسائها وخاله: الشيخ الفقيه أبو القاسم الهوزي. في هذا الجو الأسري العلمي نشأ ابن العربي وترعرع بين العلم والعلماء فسمع من أبيه وخاله ومن كبار علماء بلده.

خرج لأداء فريضة الحج وطلب العلم سنة ٤٨٥هـ وكان سنه حين ذلك نحو سبعة عشر عامًا وكان قد تأدب وقرأ القراءات وفي طريقه للحج دخل مصر وسمع من علمائها فلقي أبا الحسن الخلعي وأبا الحسن بن مشرف وأبا الحسن بن داود الفارس ثم توجه إلى الشام فسمع أبا نصر المقدسي وأبا سعيد الزنجاني، وأبا حامد الغزالي، والإمام أبا بكر الطرطوشي وتفقه على يديه.

ثم توجه إلى مكة لأداء فريضة الحج سنة ٤٨٩هـ وسمع من علماء مكة المكرمة والمدينة المنورة وعلماء الحجاز ثم توجه إلى بغداد فسمع من علمائها

---

(١) سير أعلام النبلاء (٢٠/ ١٩٧) وفيات الأعيان (٤/ ٢٩٦).

وشيوخها ثم توجه إلى الإسكندرية وسمع من شيوخها وفقهائها وظل بها حتى توفي والده سنة ٤٩٣ هـ فدفنه بالإسكندرية ثم عاد إلى أشبيلية سنة ٤٩٥هـ بعد رحلة علمية استغرقت ١٠ سنوات، عاد إلى الأندلس بعلم غزير وفضل كثير لم يأت به أحد قبله.

استقر ابن العربي بأشبيلية واشتهر اسمه وعلا ذكره فقد كان من أهل التفنن في العلوم والاستبحار فيها مقدمًا في المعارف كلها متكلمًا في أنواعها بارعًا في جميعها حريصًا على أدائها ونشرها، ثاقب الذهن حلو المحاضرة مع مكارم الأخلاق وحسن المعاشرة وكثرة الاحتمال وكرم النفس وحسن العهد وثبات الود، قصده طلاب العلم من كل مكان لسماع الفقه والأصول والتفسير والوعظ وتتلمذ على يديه كبار العلماء فسمع منه القاضي عياض والقاضي ابن خلف الأشبيلي والحافظ اليوسفي واتسع حاله وكثرت أفضاله وعلى بلده سورًا أنشأه من ماله.

وظل أمره في ارتفاع وعلمه في انتشار وكان رئيس وفد أشبيلية عام ٥٤٣ هـ للصلح مع الأمير عبد المؤمن فقبل طاعتهم ثم عاد إلى أشبيلية وتولى قضاءها فنفع الله به أهلها لصرامته وشدته ونفوذ أحكامه.

وكانت له في الظالمين سورة مرهوبة، وكان ذا شدة وسطوة على أهل الباطل.

ثم عزل عن القضاء، فانتقل إلى قرطبة معظمًا مكرمًا وأقبل على نشر العلم وتدوينه وله تآليف كثيرة تدل على سعة علمه وفضله منها:

١ ـ أحكام القرآن.

٢ ـ كتاب المسالك في شرح موطأ مالك.

٣ ـ القبس على موطأ مالك .

٤ ـ عارضة الأحْوذيّ على كتاب الترمذي .

٥ ـ القواصم والعواصم .

٦ ـ المحصول في أصول الفقه .

٧ ـ سراج المريدين وسراج المهتدين .

٨ ـ كتاب المتوسط .

٩ ـ كتاب المشكلين .

١٠ ـ تأليف في حديث أم زرع .

١١ ـ الناسخ والمنسوخ .

١٢ ـ تخليص التلخيص .

١٣ ـ القانون في تفسير القرآن .

١٤ ـ أنوار الفجر في تفسير القرآن .

قال هو نفسه عنه في كتاب القبس : إنه ألفه في عشرين سنة ، ثمانين ألف ورقة نحو ثمانين مجلداً وتفرقت بأيدي الناس .

١٥ ـ وأشهر كتبه على الإطلاق كتاب «أحكام القرآن» وهو من أمهات كتب الشريعة عرض فيه آيات الأحكام مرتبة حسب ورودها في السور ثم يشرحها ويستخرج ما فيها من أحكام وهو يعتمد على اللغة والحديث وعلى ما كان من أفعال النبي ﷺ وصحابته ، ويوازن بين المذاهب ، ويؤيد بالحجة الدامغة والمنطق السديد .



وفي سنة ٥٤٣هـ توفي شيخ الأندلس وعالمها وقاضيها وهو ابن ٧٥سنة وهي بلا شك حياة طويلة أمضاها في طلب العلم من كبار العلماء حتىٰ أصبح أحد أوعية العلم في زمانه وظل يفتي بين الناس ٤٠ سنة وترك مؤلفات كثيرة أنارت السبيل لطلاب العلم حتىٰ وقتنا هذا.

❊ ❊ ❊



المراجـــع

١. العبر في أخبار من غبر — ابن قايماز الذهبي المتوفى سنة ٧٤٨ هـ

٢. سير أعلام النبلاء — ابن قايماز الذهبي المتوفى سنة ٧٤٨ هـ

٣. طبقات الحفاظ — عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي المتوفى سنة ٩١١هـ

٤. ذيل تذكرة الحفاظ — أبو المحاسن محمد بن علي بن الحسن المتوفى سنة ٧٦٥ هـ

٥. تاريخ الدولة العثمانية — محمد فريد بك

٦. الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية — طاشكبرى ذادة المتوفى سنة ٩٦٨هـ

٧. عجائب الآثار في التراجم والأخبار — عبد الرحمن بن حسن الجبرتي

٨. شذرات الذهب في أخبار من ذهب — عبد الحي بن أحمد العكري الدمشقي المتوفى سنة ١٠٨٩هـ

٩. تاريخ الأمم والملوك — محمد بن جرير الطبري المتوفى سنة ٣١٠هـ

١٠. البداية والنهاية — إسماعيل بن عمر بن كثير المتوفى سنة ٧٧٤ هـ

١١. المنتظم في تاريخ الملوك والأمم — عبد الرحمن بن علي بن محمد بن الجوزي المتوفى سنة ٥٩٧ هـ

١٢. نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب — أحمد بن محمد المقري التلمساني

١٣. الكامل في التاريخ — محمد بن محمد بن عبد الواحد الشيباني المتوفى سنة ٦٣٠هـ

١٤. الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب المالكي — إبراهيم بن علي بن محمد بن فرحون

١٥. طبقات الشافعية الكبرى — عبد الوهاب بن علي السبكي المتوفى سنة ٧٧١ هـ

١٦. الجواهر المضية في طبقات الحنفية — عبد القادر بن أبي الوفا القرشي المتوفى سنة ٧٧٥ هـ

١٧. وفيات الأعيان وأنباء الزمان — شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر المتوفى سنة ٦٨١هـ

١٨. الطبقات السنية في تراجم الحنفية للمولى — تقي الدين بن عبد القادر التميمي المتوفى سنة ١٠٠٥هـ

١٩. البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع — محمد بن علي الشوكاني

٢٠. الدرر الكامنة في أعيان المائة الثمانية — أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد المتوفى سنة ٨٥٢هـ

٢١. تاريخ الخلفاء — عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي المتوفى سنة ٩١١هـ

٢٢. فتوح البلدان — للبلاذري المتوفى سنة ٢٧٩ هـ

٢٣. تاريخ بغداد — أحمد بن علي أبو بكر الخطيب البغدادي المتوفى سنة ٤٦٣هـ

٢٤. النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة — ابن تغري بردي المتوفى سنة ٨٧٤ هـ

٢٥. بغية الطلب في تاريخ حلب — كمال الدين عمر بن أحمد بن أبي جرادة

٢٦. المعجب في تلخيص أخبار المغرب — عبد الواحد المراكشي

٢٧. المغرب في حلى المغرب — تحقيق د. شوقي ضيف

٢٨. الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى — أبو العباس أحمد بن خالد الناصري

٢٩. البرق الشامي — عماد الدين الأصفهاني المتوفى سنة ٥٩٧ هـ

٣٠. حلية الأولياء وطبقات الأصفياء — أبو نعيم الأصبهاني المتوفى سنة ٤٣٠ هـ

٣١. موسوعة الجهاد في الإسلام — الدكتور أحمد الشرباصي

٣٢. رجال من التاريخ — الشيخ علي طنطاوي

٣٣. إيقاظ أولي الهمم العالية لاغتنام الأيام الخالية — عبد العزيز المحمد السلمان

٣٤. أصول الوصول إلى الله تعالى — محمد حسين يعقوب

٣٥. رجال حول الرسول — خالد محمد خالد

٣٦. وصايا العلماء عند حضور الموت — محمد بن عبد الله بن أحمد المتوفى سنة (٣٧٩هـ)

٣٧. التكملة لكتاب الصلة — أبو عبيد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي

٣٨. أبجد العلوم — صديق بن حسن القنوجي المتوفى سنة (١٣٠٧هـ)

٣٩. معجم البلدان — ياقوت الحموي

٤٠. اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا — المقريزي

٤١. مجلة التوحيد ربيع الآخرة ١٤٢٥هـ

٤٢. طبقات الفقهاء — أبو إسحاق الشيرازي المتوفى سنة ٤٧٦هـ

٤٣. مجلة الأمة جمادي الآخرة ١٤٠٢هـ

٤٤. مجلة الأمة ذو الحجة ١٤٠٢هـ

٤٥. أبو حنيفة النعمان — للأستاذ عبد الحليم الجندي

٤٦. العدالة الاجتماعية في الإسلام — الاستاذ سيد قطب

٤٧. مع حركة الإسلام في أفريقيا — د. عبده بدوي

٤٨. الفكر القانوني الإسلامي بين أصول الشريعة وتراث الفقه — أ/ فتحي عثمان



فهرست الموضوعات

الموضوع	الصفحة


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com



التوزيع في القاهرة: العربية للتوزيع خلف الجامع الأزهر
شارع الإمام محمد عبده - أول درب الأتراك - ت: ٠٠٢٠٢/٥١٢٠٦٢١



Dar AL-Eman
Printing, Publishing&Distribution
0 001986 501451